بطل المصنع

2764

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

W. Arthur Jeffery

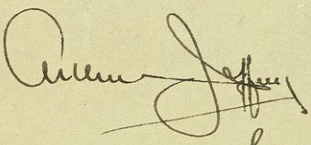
Paris. 1934.

بطل المطعم

تأليف

جيمس كنير

النيل
مطبعة المسيحية

كلمة للمعرب

هذه رواية أخلاقية جمعت الى قوة التصوّر، دقة التصوير. وضعها البحّاثة المستشرق الاستاذ جيمس كنير بعد أن استوطن الشرق فهو اذاً يكتب بقلم عليم خبير. وقد وُكل اليَّ امر تعريبها، فأقدمتُ عليه ولي كل الرجاء ان اكون قد وُفقت اليه. والسلام؟

ابرهيم سعيد

بطل المطامع

الفصل الاول

في منتصف شهر يونيو، في يوم عاصف شديد الحر، كان قطار الاكسبريس القادم من الصعيد ينهب الارض نهباً، وهو يقطع بغير توقف تلك المسافة الشاسعة الممتدّة بين محطتي مغاغة وبني سويف بسرعةٍ تبلغ خمسين كيلو متراً في الساعة. وكان الحرّ حينئذٍ قد عبث بعقول الركاب فخيّم على جلّهم سكون رهيب، وانعقد الكرى على أجفان بعضٍ منهم

وكان بين أولئك الذين استولى عليهم النوم، بطلنا الشاب الذي كان جالساً على مقعدٍ منزوٍ في احد صالونات الدرجة الثانية. وكان منذ بضع دقائق يتسلّى بتقليب صفحات احدى الجرائد الهزلية. فبدأ النُعاس يستولي عليه من كثرة الحرّ، والقعقعة المملة التي كانت تسببها عجلات القطار، حتى كادت المجلة تنزلق من يده. وعبثاً حاول ان يغلب النوم بعد ان غالبه طويلاً فاستسلم للنعاس بعد ان ألقى بتلك المجلة جانباً، ونزع طربوشه عن رأسه. فاسترعت حركاته هذه انتباه شيخ كان جالساً على مقعد تجاهه. وقبيل ذلك، كان هذا الشيخ يلهو تارة بفتل شاربيه، وطوراً بتقليم أظافره، وعلى وجهه علائم التعب، وعيناه غارقتان كما لو كانتا تتطلعان الى شبح بعيد. أما الآن فقد تنبّه فجأة. فتقدم والتقط المجلة الهزلية التي كان قد ألقاها بطلنا جانباً،

معتقداً ان له الحرية في هـذا التصرُّف ما دام قد سبق فتحدث الى ذلك الشاب ببعض الكلمات التي رفعت بينهـما التكليف . لكنه قبـل ان يهـم بقراءة المجلة ، قضى بعض الدقائق متطلّعاً الى ذلك الشاب الغارق في سباته . وكان من الطبيعي ان ينصرف تفكيره الى ذلك الشاب ولو الى حين، سيما وانه قد علم من حديثه القصير معه ان اسمه كمال أفندي عبد السيد، وانه كان معلماً باحدى مدارس الجمعيات الخيرية في الصعيد، وأنه في طريقه الى القاهرة لأول مرة ، ليبحث عن وظيفة . لكنه لم يكن يعلم أيَّ باب يطرق . وفوق ذلك فان معرفته بذلك الشاب كانت يسـيرة زهيدة ، فاهتمامه به في هذه الآونة لم يدفعه اليه مجرد تفكيره في ماضيه أو في مستقبله أو في حالته الراهنة . لكن الذي اجتذب التفاته اليه بنوعٍ خاص ، هو ذلك المظهر الانيق الذي بدا فيه ذلك الشـاب : اذ كان يرتدي بذلة على آخر طراز ، وچاكتة ذات زيٍّ أنيق ، لها طيتان عريضتان على الصدر ، ومن جيبها الامامي ، يهفهف منديل حريريّ ورديّ اللون ، مشرئباً بعنقه الى الامام ، وبجانبهـا يشرف قلم برأسه الذهبيّ . اما سرواله (بنطلونه) فكان عريضاً جداً وطويلاً لدرجة يكاد يغطي حذاءه اللامع ، وينتهي بثنيـة لا يزيد عرضها عن قيراط . وقد استكمل هندامه بقميص حريري متناسق في لونه مع لون منـديله الحريري . وكانت ربطة ياقته على الطراز المعروف لدى الفرنسيين بـ«الفراشة» (پاپيون)

هذه هي الاشياء الذي استرعت التفات الرجل في هذه الآونة. ومنذ الآن سنتركه يمضي في قراءة تلك المجلة فلا نعود نزعجه فيما بعد . فقط يكفينا منـه انه يشـاطرنا الرأي في أن وجه كمال كان يلفت الانظار فان اسـتدارة جبهته

وتجويفها فوق عينيه وعلى جانبيهما ، لِمَن العلامات الدالة على الذكاء المتفوّق سيما في العلوم الرياضية . وذقنه المحدبة والممتدة الى الامام ، لمن احدى علائم الثبات — وهكذا كان لولا ان ثباته قد انقلب لسوء الحظ فاستحال الى مطامع أشعبيَّة . وكانت عيناه ايضاً خلابتين . وعلى رغم كونهما مغمضتين أثناء نومه بحكم الطبع الا ان ذلك الرجل قد تمكن أثناء محادثته مع كمال ان يستشف من وراء عينيه ملامح تنم عن ميل للاختلاس والخداع

أما كمال الذي حاولنا ان نرسم للقارئ صورة عنه ، فقد بدت منه حركة قلقلة في نومه ، فوضع رجلاً فوق الأخرى ، وأسند رأسه على ركن مقعده واستغرق في نوم عميق — كأنه انقطع عن الدنيا وساكنيها ، اذ كان غارقاً في لذيذ الاحلام

* * *

« تفضل » !

هنا ظهر شاب يشغل وظيفة كاتب حسابات ودخل الى المكتب تلبية لهذا النداء ثم قال : «تكرّم يابيه وشرِّف هذا الايصال بامضائك الكريم»

«أي نعم . هل تسلمت هذا الثمن منه» ؟

«نعم أفندم»

«حسناً . فهذا ما حسبت حسابه : ان الرجل يقبل في نهاية الأمر ما عرضناه عليه . لاني فهمت انه من المتعذر عليه ان يجد مرغوبه في أي محل آخر فيضطر في النهاية ان يرضى بالثمن الذي طلبناه منه» . تكلم بهذا ثم أمسك بقلم حبر كان مثبتاً في مكتبه ، وردَّد يده بعُجب وخيلاء على

القرطاس ، فتلألأ بريق خاتمه الماسي ، ثم وقّع على الايصال بامضاء غامض لا يقوى أحد على ان يحل رموزه فيقرأ فيه اسم كمال عبد السيد ، ما لم يكن ملماً تمام الالمام بطريقة امضائه

ثم أعاد القلم الى مكانه على المكتب ، وتناول عوضاً عنه سيجارة فخمة كان قد وضعها على مكتبه الضخم ، وكان دخانها اللاّذع يتصاعد فيملأ جوّ المكان. واذ وضع ذلك الشاب المتباهي سيجارته بين شفتيه استلقى على كرسي مكتبه ذي المحور المتحرك ووضع رجلاً على الأخرى وبدأ يتطلع في السقف ليمتع ناظريه بشكل التموجات المستديرة التي يكونها الدخان المتصاعد من فمه العَبِق

وكان بين آونة وأخرى يرفع بصره الى الساعة الكبرى الموضوعة تجاهه على جدار غرفة مكتبه الانيقة المفروشة بالطنافس. ثم ألقى بما تبقى من السيجارة في منفضة الرماد ووضع يده على الزر الكربائي المثبّت في احدى زوايا مكتبه ، فدق الجرس مثنىً . وكان الطقس في ذلك اليوم حاراً على نوعٍ ما ، والساعة قد بلغت الآن الحادية عشرة ونصف . فها قد دنا وقت انصرافه الى البيت

تلبيةً لرنين الجرس، دخل سائق سيارته بكسوته المزركشة ، فأمره قائلاً «أعد السيارة وأوقفها لدى الباب الأمامي»

«سمعاً وطاعة يا مولاي»! انصرف السائق ، و بعدها وقف سيده ومشى بخطوات متثاقلة نحو مرآة كبرى وقضى واقفاً امامها بضع دقائق لبس فيها طربوشه ، ورتب ربطة ياقته وكميّ قميصه اللامعين المزينين بزرين ذهبيَّين مرصعين بالماس

وفي طريقه الى المصعد التفت الى كاتب الحسابات وقال : «أغلق باب

مكتبي جيداً، لأني منصرف الآن الى البيت. فنزل في المصعد حتى بلغ الدور الأرضي، ومنه هرول نازلاً عن تلك الدرجات الرخامية المؤدية الى الباب الخارجي، وهنالك كان يرد تحية البوابين والخدم والداخلين الى الدار برفع المقبض العاجي الذي كان يتوج عصاه المفضَّضة المصنوعة من الأبنوس. و بكل خفة ورشاقة جلس في المقعد الخلفي في سيارته الفخمة اللامعة التي كانت في انتظاره عند افريز الشارع. فاغلق السائق باب السيارة، ثم همَّ الى مركز القيادة فانطلقت السيارة في شوارع المدينة وهي تنساب فيها بكل خفة كما تنساب الحية الرقطاء في جدول الماء، مفسحة الطريق لنفسها بغير تعب ولا عناء، حتى بلغت الحي الذي يقطنه الوجوه والاشراف في احد أطراف المدينة. وما هي الا هنيهة حتى بدأت السيارة تسير الهوينا لأنها دنت من المنزل، و بعد لحيظة وقفت امام باب كبير، يؤدي الى حديقة جميلة. كان صديقنا هذا جالساً مستريحاً على مقعد السيارة الخلفي المفروش بالمخمل الاحمر الناصع، وهو متأكد انه لم ينعس، ومع ذلك فقد تراءى له ان الحوادث التي تمرّ به، مفككة لا تربط بعضها ببعض صلة مكينة. ومع ان المرئيات كانت تمر امام ناظريه وكانت حواسه كلها متنبهة الا انه كان يشعر ان غموضاً خاصاً كان يحيط بها. وعلى رغم كون الدنيا يومئذٍ في حالة بهيجة، فان بعض الاشياء كانت تحف بها هالة نحس غريبة كتلك التي يشعر بها الانسان وهو غارق في أحلامه لكنها لم تكن من القوة بمكان حتى تبعث في ذهن صاحبنا شكاً في حقيقة صحوه و يقظته

فالتحية التي حياه بها البواب لم تُرد بمثلها ولا بأقل منها. وعجلات السيارة

كانت تحدث خشخشة وهي تسير على الحصباء الوردي المرصوف به طريق طويل ينتهي بحوضٍ منزرع بالزهور اليانعة. وما هي الا لحيظة حتى وقفت السيارة امام مدرَّج من الرخام المصقول فخرج رب الدار من سيارته بعد ان فُتح له بابها، فصعد بخفة الى مدخل الدار حيث كان في انتظاره خادم آخر بكسوته المزركشة، ففتح له الباب وحمل عنه طربوشه وعصاه

وهنالك أمر آخر شعر به وهو متنبّه. ذلك انه رأى نفسه في غرفة استقبال رحبة الجوانب، فاخرة الرياش، متلألئة بلمعانٍ بهي. غير انه في هذه الحال أيضاً كان يشعر بفراغٍ خفي، لكنه لم يكن ملموساً لدرجةٍ يمكنه فيها ان يدرك كنهه ولا أن يعيّن مداه

كانت أرض الغرفة مفروشة بأفخر الطنافس، وجدرانها موشاة بصور فنية نادرة المثال، ومن سقفها تتدلى ثريَّا هائلة تزينها نجفات بلورية متألقة كان يشع من خلالها اثنا عشر مصباحاً كهربائياً، فيتلألأ وهجها ببريق بهيج يبهر الأبصار. ومع ان الوقت كان ظهراً، الا ان اضاءتها في ذلك الوقت لم تكن من الشذوذ بمكان يذكر. كانت جوانب الغرفة مزدانة بكراسي مذهبة منوعة الحجم والطراز منجدة كلها بالمخمل الزاهي الألوان. وكان كمال متكئاً على أحد الكراسي الضخمة في وسط الغرفة، وعلى شفتيه ابتسامة وفي يده سيجارة

غير انه لمح حركة خاصة بدت من شخص جالس على كرسي آخر مقابل نافذة كبرى، فحدَّق ببصره نحو مصدر هذه الحركة، فبانت له سيدة متسربلة حُلة من الأطلس البهي، البنفسجي اللون. فعاد وتطلع اليها ولكن النور

المنبعث من النافذة قد بهر نظره . وهنا سأل نفسه : أفي يقظة أنا أم في منام ؟ لكن غشاوة مرت على عينيه ، فغيرت المنظر الذي كان امامه . واذا به في مكتبه كما كان

وكان منذ لحيظة قد قفز على قدميه خلف منضدة مكتبه ، وهو يضرب عليها بقبضة يده بكل عنف ، لدرجة اهتزت فيها كل أدوات الكتابة وتناثر بعضها من مكانه

«عليك أن تقبل الشروط التي عرضناها عليك . والا فلا مجال للاتفاق معك» ! تفوّه بهـذه الكلمات وهو يصرخ بأعلى صوته ، واذا بالرجل الذي وُجّهت اليه هذه الكلمات قد ظهرت عليه علامات المسكنة والصغار

«ان آخر رجل توعدنا بالاخلال بشروطنا كان غبياً . فقدّمناه للمحاكمة وقد سحقناه يا سيدي . نعم سحقناه فعلاً » وكأنه أراد أن يرسخ هذا الكلام في أذني سامعه لذلك ضرب بقبضته على المنضدة ضربة أخرى وهو يقول «هل فهمت ؟ »

فاجاب الرجل بكل ذلة وصغار «أي نعم . مولاي» . وحالاً استأذن سيده في الانصراف وولى الأدبار

وهنا التفت كمال الى صديق كان جالساً يشرب القهوة معه وقال : «يظن بعض هؤلاء الزعانف ان في امكانهم أن يجيئوا الى هنا ويُملوا علينا ارادتهم فماذا يظنون فينا ؟ أترى يعتقدون اننا معتوهون» ؟

فانطلق صديقه مقهقهاً بصوتٍ مرتفع ، وفي نفس الوقت سُمع صوت قهقهة عالية منبعثة من قوم كانوا قد دخلوا للوقت واجتمعوا في مكتبه . وما

تطلع الى هؤلاء الزائرين ، حتى راقته منهم ابتسامة صافية رآها منطبعة على شفتي كل منهم ، استدل بها على رضاهم عن تصرفه . وكان بين هذه الثغور الباسمة ، ثغور سيدات

ولما خفت صوت القهقهة ، غابت معه هـذه الوجوه الباسمة . وفجأة رأى امام منضدته العريضة شخصاً آخر . وكان هذا كاتباً صغيراً ، والخوف مرتسم على محياه . ومع ان رئيسه لم يُبرق في وجهه ويُرعد ، الا أن حملة عنيفة من التهكم المر اللاذع ، قد وُجِّهت اليه من الجانب الآخر من المكتب

— «اهه. هذا ما كنت تعمل له طوال وقتك يا بنيَّ» . نطق سيده بهذه الكلمات وهو مستلق على كرسيه ذي المحور المتحرك ويدخن سيجارته ثم استطرد في القول: «ألأجل هذه الغاية كنا نربيك ونهذبك كل هذه الشهور الماضية ؟ هل انفقنا عليك أموالنا لنعلمك كيف تسلبنا ؟ أي نعم ! لتسرقنا بكل خفة ، ورشاقة ومهارة ؟ ما شاء الله! هذه مهنة شريفة تليق بحامل البكالوريا، فقد أمسيت الآن ضليعاً في فنون السرقة العصرية المنظمة» . قال سيده هذه الكلمات وهو يبتسم ابتسـامة صفراء ، ويغمز باحدى عينيه غمزات خفية من طرف خفي ، والدخان العبق يتصـاعد من فمه . «حدثني يا هـذا ماذا عملت بالدراهم التي في عهدتك ؟ هل أنفقتها على ملابسك الأنيقة وقمصانك الحريرية ؟» ثم حانت منـه التفاتة الى صـديقه الملازم له وقال : «انظر الى أسنانه الذهبية البرَّاقة . لعل هذا هو السبب الذي يمكّنه من ان يحمل في فمه ذهباً هذا مقداره . أليس كذلك ؟»

وهنا ظهرت عليه علائم الحدَّة والشراسة ، لدرجةٍ تقرب من التوحش

وصرَّ بأسنانه وهو يتفوَّه بهذه الكلمات : « اسمع ما أقول . أنا لا أريد أن أطردك من عملك الآن . ولكنني حكمت عليك بان تشتغل هنا أربعة شهور بغير أجر . والا قدّمتك في الحال الى المحاكمة وهذا . . . »

فتوارى ذلك الشاب الأثيم عن الأبصار . أما كمال فقد ترك المكتب ومضى فجلس في احد الكراسي الفخمة في غرفة الاستقبال . وأما الفتاة التي كانت مرتدية الثوب الاطلسي البنفسجي اللون فقد قفزت من مقعدها وتخطّرت نحوه بكلّ خفة ورشاقة وارتكزت بذراعيها على مسند كرسيه الخلفي . وألقت عليه ابتسامة عذبة انفرجت عن صفيّ أسنان لؤلؤية وظهر معها أيضاً سرب من الحسان المرحات الباسمات تفوق احداهن الاخرى جمالاً ودلالاً ، وكلهن يرسلن اليه نظرات التقدير والاعجاب

وسرعان ما اختفين كلهنَّ في لمح البصر

«أهلاً وسهلاً . هل أنت هنا يا بيه» ؟ كان صاحبنا الآن واقفاً في الباحة الفسيحة عند قاعدة السلم ، وسماعة التليفون في يده ، وهو يقول : «سنخرج هذا المساء في نزهة نيلية في زورقي . فهل تتكرَّم بمرافقتنا ؟ لقد عزمت سليم عبد الرازق باشا وجيد أفندي وأحمد صالح بك و . . .»

ولكن لم يكن من داع لاطالة المحادثة بعد فكلّ شيء صار الآن معداً

لما بُدئت نزهتهم النيلية ، هبّ عليهم نسيم النيل العليل ، وانعكست أشعة القمر على الزورق فأكسبته لوناً فضياً جميلاً ، وكان نور القمر بهياً لدرجة فيها يستطيع المرء أن يتبين دقائق الاشياء المحيطة به — فمن الوشي

المطرزة به المساند الاطلسية الوردية اللون المبطنة بها المقاعد المحيطة بحافة الزورق ، الى الابتسامات العذبة التي كانت تنطبع بين حين وآخر على ثغور الفتيات فتنفرج عنها الاسنان العاجية الجميلة ، الى صفاء العيون النرجسية اللون ، اللوزية الشكل . فبهره جمال هذه المناظر وخلب لبه ، وكان يتفرس حوله بكل اهتمام كما لو كان يريد أن يلتهم كل شيء . وفجأة قفز من مكانه واذا بيده كأس من الخمر الياقوتية الحمراء . ولم يكن يدري كيف وُضعت هذه الكأس في يده

فوقف على المقعد المفروش بالأطلس حيث كان جالساً ، ورفع الكأس في يده منادياً بأعلى صوته : « أنا أشرب نخب السيدات ! » فرددت أصوات كثيرة هذا النداء ، وبعدد هذه الأصوات ، رُفعت أقداحُ الخمرِ على الشفاه

يالها من ذروةٍ عجيبة بلغتها هذه المسرات ! !

أه ! ولكن ماذا جرى ؟ هوذا الزورق يهتز هزات عنيفة . لقد فقد توازنه ، انه على وشك الانقلاب بمن فيه . لقد انقلب فعلاً فغمرته المياه ! ها هو يغطس في الأعماق . . . أه ! المياه باردة !

* * *

كان احد الأشخاص واقفاً تجاهه الآن . وفي نفس الوقت سقطت نقطة ماء بارد على خده . وفجأة عاد الى صحوه واسترد انتباهه ، فتطلع الى فوق . وعلى الفور أفاق الى حقيقة الحال . فرأى رجلاً يحاول أن يأخذ زمزمية الماء من على الشماعة

— «ما هـذا؟ الزمزمية تنضح ماء!» نطق كمال بهذه الكلمات وهو يمسح وجهه بمنديله

— «أي نعم. لا تنزعج الآن. فقد بدأت الماء تنضح منها ولهذا السبب أنا أحاول أن أرفعها من مكانها»

— «وكيف حدث ذلك»؟

— «ألقيت حقيبتي فوقها فانكسرت الزجاجة لانها سريعة العطب كما لا يخفى»

— فوقف كمال لينزع عن ملابسه عفار الطريق، ويرتب ربطة ياقته، وينظف طربوشه، ويمشط شعره. واذا القطار يقرب من مدينة بني سويف

وبعد ان انتهى من ترتيب ملابسه، عاد فجلس على مقعده المنزوي وأخرج ساعته من جيبه. «ما هذا» ؟ لقد مضت الآن احدى عشرة دقيقة مذ أن تطلّع الى ساعته آخر مرة. اذاً كانت الدقائق تمرُّ بخطوات متثاقلة كأنها ساعات طوال. لكنه كان غارقاً في أحلامه اللذيذة فتقلصت ساعات الحلم اللذيذة وانكمشت الى دقائق معدودات. فشرع يستذكر تلك الحوادث التي مرت به سراعاً. أي نعم. فقد كان يحلم بحسن رزق بك الاسيوطي. وكان هذا من الطبيعي لأنه كان دائماً شديد الاعجاب به كثير التفكر فيه لأنه كان يرى فيه مثال الرجل الناجح الموفق في حياته وكان يعتقد انه لا يعوزه شيء من حطام هذه الدنيا. كل هذا وهو لم يزل بعد في سن الثلاثين

ولكن مهلاً. ان مسألة ذات بال قد وقعت له. انه يذكر الآن جيداً انه في حلمه وقّع على ايصال بامضائه: «كمال عبد السيد»! فبأي مناسبة

حدث هذا ؟ ولِمَ كتب اسمه ؟ انه يذكر أيضاً وجه ذاك الشخص الآخر الذي رآه في رؤياه . فمن عساه يكون ؟ حاول كمال ان يحل هذه الألغاز ولكنه لم يقض في ذلك وقتاً طويلاً لان القطار بدأ يهدئ سيره اذ اقترب الى مدينة بني سويف ، فرغب كمال — نظير كثيرين غيره من الركاب — ان يروي غليله بقدح من عصير الليمون المثلج

— أهلاً كمال: كيف حالك؟ لم أرك منذ مدة مديدة. فأين كنت طوال هذه المدة ؟ ولماذا أنت راكب هذا القطار ؟» هذه هي الكلمات التي حياه بها نقولا أفندي رضى . فسلم احدهما على الآخر تسليم المودة والشوق والبشاشة . ولما تحرك القطار من محطة بني سويف جلسا سوية يتجاذبان أطراف الحديث والسمر . وتصادف انه لم يكن معهما في صالون العربة سوى امرأة عجوز ، لم يكن يهمها حديثهما ، فشعرا تلقاء هذا بحرية لا تشوبها شائبة . هكذا كان شعور كمال على الأقل . فقد سر بلقاء نقولا في طريقه ، لانه كان يرجو ان يستعين به في المستقبل سيما وان كمال ليس بالانسان الوحيد الذي يبغي من وراء الصداقة نفعاً مادياً

« يلوح لي من مظهرك وهندامك انك مفلح ناجح» — قال كمال هذه الكلمات بنغمة جدية اذ وقع بصره على بذلة زميله المفصلة على آخر طراز ، وعلى حقيبته المصنوعة من جلد أنيق . وفي الوقت نفسه ألقى نظرة على هندامه هو فرأى ان مظهره الخارجي يتناسب مع مظهر نقولا مع انه كان يعلم في قرارة نفسه ان سفره بالدرجة الثانية كان فوق طاقته ولو ان زميله لم يكن يدري ذلك

أجابه نقولا : «أنا أذكر انك حين تركت مدرسة نجع حمادي القروية

التي كنا فيها سوية قلتَ انك لست مستفيداً منها وانك ستغادرها . أليس كذلك » ؟

فاجاب كمال : «أي نعم . اني لم أندم قط على تركي ذلك المكان . ولكن ألا تذكر أننا قضينا في تلك الأيام أوقاتاً ما أحلاها ! . لقد تفكرت مراراً في ذلك الوقت الذي كنتَ تنثر فيه ذلك النشوق ؟ وكم أوقعتَ عبد الله في ارتباكات كثيرة فهاج غضبه عليك كثيراً لدرجة كاد فيها أن يفتك بك

«صحيح ! ولكن أنت الذي كنت تحرضني على ذلك» . أجاب نقولا متحمساً . «هذه كانت خطتك على الدوام . فقد كنت أنت تفكر وتدبر ونحن ننفذ . وعلينا وحدنا كانت تقع المسئولية»

أجاب كمال مندفعاً : «ولكنكم لم تتحملوا المسئولية وحدكم . ألا تذكر ان عبد الله كان يحجزنا مدة نصف ساعة بعد انصراف المدرسة لانكم كنتم تبغون الفرار من مسئولية عملكم الآثم ؟ وما قولك في تلك المرة التي فيها وضعتَ أفعى في درج عبد الله هل كنتَ قد رأيت شخصاً بدأ بهذا العمل قبلك ؟ »

— الآن اذكر انني اذ شرعت مرة في القيام بأمر يغيظ عبد الله ، إلا وذلك الوغد قد رفع عينيه نحوي فرآى نظري واقعاً عليه في وقت كان يجب أن أكون منصرفاً فيه الى عملي . فاستنتج من ذلك اني انا المعتدي عليه ، وما كان منه الا ان انقضّ عليَّ بلا شفقة فأُسقط في يدي وقتئذ ولم أحاول تبرئة نفسي ، لاني أُخذت بفراسته التي لا يُسبر لها غور»

«لقد كانت أياماً لذيذة بالحق» . فاه كمال بهذه الكلمات ثم أردفها بالقول : «في أي شيء تشتغل الآن ؟ في القطن ؟»

— «نعم ما زلت أتاجر بهذا الصنف . وقد مضت عليَّ في ذلك أعوام كثيرة ولكنني لا أستطيع أن أقول انني مقتصر على هذا العمل لانني أعتقد انه من الواجب على الشاب في هذه الأيام الا يقصر همه على وضع سهم واحد في قوس أعماله . فكلما كثرت عدد السهام التي يضارب بها المرء في معترك الحياة ، زادت امامه فرص الكسب واتسع امامه مجال الخير هنا وهنالك» .

قال نقولا هذه الكلمات ، وهو يبتسم و يغمز باحدى عينيه

«أظن ان شراء القطن يكلفك أسفاراً كثيرة متوالية

«كل الوقت لا بعضه» — قال نقولا — «ولكنها مع ذلك حرفة لذيذة . على رغم كونها لا تدرّ كسباً كبيراً في هذه الأيام وعلى كل فهي مليئة بالحوادث الطريفة. فأنا أذكر انني وُجدت في مأزق حرج منذ مدة ليست ببعيدة حين كنت مسافراً مع جماعة من الركاب في احدى سيارات الاجرة من نزلة اسحق الى عزبة طنوس وكان ذلك حوالي الساعة الثامنة مساء. ولما بلغنا احد مفارق الطرق ، وكان عليَّ أن أترك هذه السيارة التي كانت متجهة الى إيتاي البارود ، لأستقل بمفردي سيارة صغرى ، أواصل بها سفري . واذ وجدت سيارة على مقربة مني ركبتها بغير تردد . ولما بعدت بي مسافة خمسة كيلومترات عن طنوس الى بقعة خاوية غير آهلة بالناس أوقف السائق السيارة بدعوى ان خللاً طرأ على محركها . وكان معه زميل له ، فخرجا كلاهما وتسكعا قليلاً عند غطاء المحرك ثم انتحيا ناحية وصارا يتهامسان فاوجست

خيفة من حركاتهما الغامضة وأدركت ان وراء الاكمة ما وراءها ولكني كنت مجرداً من كل سلاح ومن أية وسيلة للدفاع . وفجأة شرعا يدنوان مني . وفي أسرع من لمح البصر ، تذكرت انني أحمل مفتاحاً انكليزياً فأشرعته من جيبي وصوّبته نحوهما بكيفية خاصة جعلت قصبته تلمع في ضوء القمر ، وقلت لهما مهدداً : «اقلعا عن هذه السخافات في الحال والا فان دنوتما مني خطوة واحدة فلن تجدا مني إلا رصاصاً حامياً» . كنت أود يا صديقي لو أتيح لك أن تراهما وهما يقفزان كالاّيل . وكان هذا خير دليل لديّ على نياتهما الغادرة نحوي . وكم سررت لان المفتاح أتاح لي نجاحاً تاماً فأوقعت الرعب في قلبيهما مما جعلهما يحسنان قياد السيارة بسرعة البرق الخاطف . أرأيت كيف ان قليلاً من «البلف» يخرج المرء من مآزق كثيرة حرجة ؟ »

«ولا تظن يا صديقي ان تجارة القطن تخلو من «البلف» . فهل سمعت بذلك المحلج الالماني الذي كان مفتوحاً في احدى مدن الوجه البحري ، وأُغلق في العام الماضي ؟ »

— « أتعني محلج بلبيس » ؟

— «نعم . كانت علة إغلاقه أُلعوبة خبيثة ، اتصل خبرها بمسمعي . ذلك ان شخصاً اسمه رزق الله أراد لحفيظة في نفسه أن ينتقم من المحلج والقائمين بالأمر فيه . فباعهم صفقة من القطن السكلاريدي بعد ان خلطها بقطن من رتبة دنيئة . ولكن أصحاب المحلج لم يتنبّهوا لهذه الحيلة فوقعوا في الفخ الذي نصبه لهم . وبعد مدة وجيزة ، وكان قد علم هو انهم بدأوا فعلاً بحلج هذه الصفقة ، ذهب رزق الله لفوره وأخطر البوليس فقام البوليس تواً وداهم

المحلج ونكل بهم شر تنكيل لكونهم أجانب، وقدمهم للمحاكمة. فحُكم عليهم بغرامة باهظة كانت السبب في افلاسهم واغلاق المحلج. ألم تكن هذه حيلة محبوكة مسبوكة؟»

— «وهل كان لك نصيب في حبك هذه الاحبولة وسبكها؟» سأل كمال هذا السؤال وهو يعلم جيد العلم ان صديقه ارفع من أن يشترك في سبك مثل هذه الحيلة. ولو ان سمعه بهذا الحادث لم يقلّل من اعجابه به. لان كمال كان يُعجب دائماً بكل شخص ذكي يستخدم عقله ونباهته

فأجاب نقولا متردداً: «في الواقع . . . أنا . . . لم يكن لي سوى قسط يسير في هذه المسألة». ثم استطرد في كلامه مازحاً «لم أقدم لهم سوى مساعدة يسيرة... أي نعم يسيرة جداً». قال هذا وأخرج علبة السجائر من جيبه وقدمها أولاً لكمال، ثم تناول هو منها سيجارة وطفق يقول: «لقد أصغيتَ لشقشقة لساني طويلاً وأنا أتحدث عن نفسي، فما بالك لا تحدثني عن نفسك وعملك، لعلك أنت أيضاً ناجح»

— «نوعاً ما». أجاب كمال — «ولكن ليس بالدرجة التي تعنيها أنت وترومها. فانني جادّ الآن في البحث عن وظيفة. فانت تعلم اني قضيت في مدرسة طهطا عاماً بعد مغادرتك إياها. و بعد ان مكثت في أسيوط نحو عامين، حصلت على وظيفة في مدرسة نجع حمادي الخيرية. وأصارحك القول انها لم تكن وظيفة مهمة، لا لان عملها شاق، بل لان مرتبها ضئيل. ومع انني كنت أؤمل أن معيشتي في بيتنا لا تكلفني كثيراً، لكنها بالرغم من ذلك أضحت لا تُطاق لانني كنت أدفع جانباً كبيراً من مرتبي مساعدة لابي وأخي فانهما كانا عاجزين

عن العمل بسبب ضعف بصرها . ولم يكن في تلك الوظيفة سوى جانب واحد منير وهو انني كنت في نفس الوقت وكيلاً لاحدى شركات السجائر ، فكنت في أوقات الفراغ أطوف بالعينات على التجار لأتعاقد معهم على الصفقات. ومتى عنّ لي الطواف بالعينات في القرى ، كنت انتحل عذراً بمرضي. ومراراً كنت اقدم شهادة طبية مزيفة اذا ما رغبت في مد الاجازة المرضية . ولكن عملي الاضافي هذا لم يدم طويلاً ، لان شركة أخرى نافست شركتنا وعطلت عملها لان وكيلها كان مخصصاً كل وقته لها . فادى هذا الى تضاؤل موردي ، فوطّنت النفس سرًّا على هجر عملي في المدرسة ، سعياً وراء عمل أفضل ، لأني تحققت ان هذا العمل المدرسي غير مجدٍ . وقد ظلت أبواب العمل موصدة في وجهي حيناً من الزمن حتى أتيحت لي فرصة اللقاء برزق افندي حليم . هل تذكر رزقاً ؟

— رزق الزماني ؟ أي نعم أذكره جيداً وكيف لا أذكر خفة يده حين كان يسرق سجائر أستاذه امام عينيه ، وعلى مرأى من جمع غفير محتشد حول منضدة الاستاذ . وقد كنا دائماً نترقب اشارة تصدر عن رزق حتى نجتمع حول عبد القادر لنخلي الجوّ لرزق حتى يتقن حبك حيلته

— حسناً . ها قد عاد رزق من القاهرة تواً ، وأخبرني عن وظيفتين خاليتين في احدى شركات النقل . والظاهر ان هذه الشركة في حاجة الى كاتبين يقومان بعمليات التفريغ في القاهرة ، واسكندرية ، وبورت سعيد ، وهو عمل يتطلب جهداً كبيراً . وقد تكرم رزق فكتب عنّي مكتوب توصية

لمدير الشركة . وأكد لي ان الوظيفة تكاد تكون في اليد

فقال نقولا «ألا تظن انه من المستحسن ان تكتب أولاً للشركة ؟ أنا اعلم ان الحصول على وظيفة في القاهرة من أشق الامور في هذه الايام»

— قد يكون . ولكني اعلم ايضاً ان المقابلة وجهاً لوجه لها قيمتها . فوجود الانسان بشخصه يتيح له اقتناص الفرص في أوانها. فضلاً عن ذلك فان لديّ باعثاً آخر يدفعني الى هجر بلدي، لان اهلي كانوا عازمين على ان يزوجوني من ابنة عمي بأسرع ما يمكن ولكني غير ميال الى هذه الزيجة، مع ان الفتاة ظريفة وجميلة حقاً وقد بذل أبواها قصارى الجهد ليزوجوني — والاصح ليزوجوني بها فصممت على التخلص من هذه الورطة. وفي اعتقادي ان من حق الفتى ان يكون بصيراً في هذه المسألة الهامة فليست كل فتاة صالحة لان تكون زوجة لاي فتى متى كانت غير قبيحة الشكل . فالمسألة لها اعتبارات اخرى ذات بال . وها انا أسر اليك يا صديقي نقولا بما يختلج في نفسي وهو انني اريد ان اضع يدي على كل مورد مالي يكون في طاقتي الوصول اليه : فلن اتزوج إلا من فتاة يحف بها بريق الذهب الوهاج. أفهمت الآن مرادي؟

اجابه نقولا : « معلوم الحق كل الحق معك ! فعلى المرء ان يكون حكيماً بصيراً لا غِرًّا جهولاً »

فطفق كمال يقول : « لست ادري لمَ يستسلم الانسان للجهل والغباوة؟ لا اكتمك انني لا استطيع ان افهم ما يقصده الغربيون بكلامهم عن « الزواج العذري المؤسس على الحب الخالص » . أتستطيع انت ان تفهم

هذا ؟ أما انا فلا فرق عندي بين فتاة واخرى من هذه الوجهة لذلك يهمني ان افكر ملياً في المؤهلات المادية»

— «هذا هو رأيي أنا ايضاً» — اجاب نقولا — «ولكني أسألك أيها الزميل ألا تسيء الظن في ما اقول . ارجو ان تكون حذراً ما امكنك مدة اقامتك في القاهرة . فهي كما تعلم مدينة غادرة قاهرة؛ فاشقياؤها يحتالون على القادمين من الصعيد بنوع خاص»

فقال كمال هازلاً : « سأتسلح دائماً بسلاح الحيطة والحذر . ها قد صرنا الآن من القاهرة على قاب قوسين او أدنى فهل لك أن تدلني على الفندق المفتخر بشارع كلوت بك » ؟

— «سأدلك عليه متى بلغنا ميدان باب الحديد »

أما القطار فكان قد بلغ الآن حدود القاهرة جنوباً . فشرع الركاب المتعبون في نزع الغبار الذي علق بهم من السفر . وأخذ كمال في ترتيب ملابسه، وتلميع حذائه وانزال حقائبه.ولما اشرف به القطار على المحطة استفسر من نقولا عن عنوانه وكتبه على ظهر مظروف عثر به في جيب جاكتته . وبعد قليل افترق الصديقان . أما كمال فقد أُخذ بضوضاء المدينة وجلبتها لان هذا كان اول عهده بها لكنه استطاع في النهاية ان يصل الى الفندق الذي كان يريد

وقبل ان يغمض جفنه في غرفته التي كانت مضاءة بنور ضئيل ، دوّن عنوان نقولا في مفكرته الخاصة: «بمنزل حسن صالح رقم ٣٨ شارع صبري»

و بعد ذلك فض المظروف الذي كان قد كتب عليه العنوان لما كان بالقطار واذ ألقى على المكتوب نظرة عاجلة مزقه ارباً وطوح بقصاصاته من النافذة. واما ذلك المكتوب فكان مرسلاً اليه من ابن عمه شاكر بطرس افندي وستكشف لنا الحوادث المقبلة عن العامل الخفي الذي دفعه الى العبث بهذا المكتوب بكل استخفاف

الفصل الثاني

قضى كمال ليلةً قلقة مضطربة ، لم يُغمض له فيها جفن ، لانه غيَّر محل نومه ،ولان آلة الراديو التي في الفندق المقابل لفندقه ، كانت تملأ الفضاء عزيفاً وضجيجاً الى ساعة متأخرة من الليل. وفي الصباح ترك فراشه مترنحاً ، مستيقظاً على صوتٍ ظنه هو جعجعة الراديو ، ولكنه كان في الحقيقة صوت صياح وتشاتم بين رجل وامرأة في الشارع بسبب خلاف شجر بينهما على مسألة مالية تافهة . وكانت الشمس قد بلغت الآن رأد الضحى ، وأضحت الطرقات عامرة بالغادين والرائحين

و بعد ان غسل وجهه وارتدى ملابسه ، نزل الى الدور الارضي واتفق مع صاحب الفندق على ان يحجز له ذات الغرفة ليلة اخرى ثم خرج قاصداً دكان حلاق ، لان مهمة خطيرة كانت تنتظره في ذلك اليوم ، فكان من الواجب عليه ان يكون على أحسن زي واجمل هندام لان المظهر الخارجي ، حسب اعتقاده عظيم الأثر ، جليل الخطر

* * *

«انني آسف يا صاح لانك جئت بعد فوات الفرصة بكثير» ــ هذه هي الكلمات الجافة ، التي ابتدره بها مدير قسم النقل. وكان هذا الرجل ضخم الجسم وهو أحد افراد ذلك الجيش العرمرم من الموظفين الذين لا عمل لهم الا الاستيلاء على كرسي طوال اليوم ، والتدخين ، وقراءة الجرائد . فانخلع قلب

كمال من وقع هذه الكلمات ، وهوى بين ضلوعه ، فأحس ذلك المسكين كأن قلبه صار اثقل من جسم ذلك الموظف الضخم الذي ابتدره بهذه العبارة

— «ولكن أليس عندك غير وظيفة واحدة خالية» ؟ قال كمال هذه العبارة متردداً متلعثماً ، لانه لم يكن يدري ما يقول غير ذلك

— «بلى . كانت عندنا وظيفتان خاليتان» . فاه المدير بهذه الكلمات واخرج معها نفخة من دخانه العبق ، ثم طفق يقول . «ولكن تقدمَ الى هاتين الوظيفتين اشخاص عديدون . وعلى ما اذكر ، جاءني ما لا يقل عن خمسين شاباً يطلبون وظائف في محلنا ، وعرض علينا بعضهم الا يأخذوا اجراً في البداية حتى نتثبت منهم ونثبتهم . فمن هـذا يتبين لك ان هذه المدينة مغمورة بسيل من الشبان العاطلين في هذه الايام»

— «ولكن الا يمكنك ان تدون اسمي في قائمة طالبي الوظائف . حتى اذا . .»

— «وما الفائدة وعندنا جيش عرمرم من هذا الصنف» ؟ وهنا ظهرت على ذلك المدير علائم الضجر والملل من قراءة تلك الجريدة التي كانت بيده

وقعت هذه الكلمات على كمال وقع الصاعقة لانها لم تكن في الحسبان . و بعد ان شكر المدير على هذه المقابلة ، اعرض عنه ضجراً متبرماً ، وخرج هائماً على وجهه في الطرقات وهو لا يلوي على شيء . واذ عاد الى حي الاعمال في المدينة ، قصد مطعماً حقيراً ، ليجلس متفكراً في موقفه اثناء تناوله الغذاء ، لان شيئاً من الطعام لم يكن قد دخل جوفه بعد . فقد تبين له الآن بأجلى بيان ان ايجاد وظيفة ما ، صار من الصعوبة بمكان ، بل صار يعتقد ان هذا في حيز المستحيل بعد إذ علم بجيش العاطلين . ولم يكن هنالك رجاء بانفراج هـذه

الازمة بعد ان أخبره فراش الشركة ان كثيرين من الشبان امثاله صاروا يهجرون الأقاليم قاصدين القاهرة في طلب الوظائف ، ظناً منهم ان أسباب العيش في العاصمة أيسر منها في الريف . والحقيقة على عكس ما يزعمون

فبدأ يسائل نفسه : هل يعود الى بلده ويقنع من الغنيمة بالاياب ؟ لا . لا . لن يكون هذا . وإلا فانه يصير اضحوكة اهل بلده ، ولا شيء في الوجود يحزّ قلب كمال حز السكين نظير صيرورته مضغة في أفواه الآخرين. وعلى أي حال ، لم يبق لديه أمل بتحسن حاله، لانه اذا عاد ادراجه الى بلده، فهناك اهله يبتزون ما قد يتبقى لديه من مال . وهناك ابنة عمه التي يخشى ان يزوجوه — أو يزجّوه — بها . عدا ذلك ، فان هناك أمراً آخر لم يفه به لنقولا في القطار ، وهو انه سيُعرِّض نفسه لمضايقة حلمي افندي فوزي ، الذي سيطالبه بدين قديم عليه يبلغ خمسة عشر جنيهاً ونيفاً — ثمن جوّالة (موتوسيكل) كان قد اشتراها منه . ولسوء الحظ قد التهمتها النيران ، ولما يمضِ على شرائها وقت طويل ، وقبيل دفع ثمنها. فالافضل له ان يبقى حيث هو الآن ، سيما وان جيبه لم يزل عامراً بالنقود التي تساعده على الصرف والانفاق ردحاً من الزمن . ولا شك ان حسن الطالع سيلقاه يوماً ما قبل نفاد المال من جيبه . وهكذا ملكه روح التفاؤل بسبب رغبته في تفادي الخزي الذي يمكن ان يحيق به لو عاد الى بلده . ثم اخرج من جيبه ثمن الطعام الذي تناوله ، والقى به على منضدة الصراف ومشى بخطى واسعة الى الخارج

* * *

وذات عشية ما ، بعد ان قضى كمال نهاراً عقيماً مملاً ، يجوب الشوارع

الملهبة بحرها ، في قلب هذه المدينة «القاهرة» ، باحثاً عن نقولا بغير جدوى ، عاد الى الفندق في ساعة متأخرة ، فوجد مكتوبَين ، على المنضدة في غرفة نومه. فتمدّد على سريره ، وفضّ المكتوبَين ، وشرع يقرأهما في وقت كان يتصاعد فيه الغطيط من شخص كان نائماً على سرير مقابل سريره . وكان أحد المكتوبَين مرسلاً اليه من عمّه ، وفيه يرجوه باسم والده ان يعود الى بيته . فلم يترك هذا المكتوب في نفسه اثراً يذكر لان البواعث التي ذُكرت في المكتوب لتحمله على العودة ، كانت هي ذات الاسباب التي تدعوه الى البقاء . اما المكتوب الثاني ، فقد جاءه من شخص يمتّ له بصلة قرابة عَصب ، اسمه شاكر افندي بطرس . فقرأ كمال هذا المكتوب بكل شغف وهو يتعجب شديد التعجب من الطريقة التي بها اهتدى شاكر إلى عنوانه . واليك نصّ المكتوب:

عزيزي كمال

بعد التحية والسلام. لا اخالك الا متعجباً من وصول مكتوبي هذا اليك ، بمقدار تعجبي أنا أيضاً من الظروف التي حَدت بي الى كتابة هذا المكتوب. فلقد استقر الرأي مؤخراً ، على ان اذهب الى انجلترا لاتمام دراستي في الطب ، وفي نيتي ان اعرج على القاهرة في طريقي الى الاسكندرية ، لاقضي فيها بضعة ايام . واكون سعيداً جداً اذا اتيح لي ان ألفاك في القاهرة . فاذا لم يكن في الامر كلفة عليك ، ارجو ان تنتظرني على المحطة لاني قادم في اكسبريس الصعيد الذي يصل القاهرة في الساعة ٧ من مساء السبت ١٧ الجاري . ومن المحطة نقصد مطعماً نتناول فيه العشاء سوية

لقد عرفت عنوانك من والديك ، ومنهما أيضاً علمت بالمهمة التي قصدتَ القاهرة لاجلها. ورجائي ان تكون قد وُفقت في ما قصدت . . . ويا ليتك اعلمتني بقصدك قبل رحيلك لان

لي معارف كثيرين من رجال الاعمال في القاهرة. فكان في امكاني ان أتساعد بهم على إنالتك مأربك . وعلى كل فانا واثق من انك تشق طريقك لنفسك

وتقبل في الختام ابلغ التحيات واصدق الاماني من ؟ المخلص لك أبد الدهر

شاكر بطرس

ملاحظة : اذا طرأ عليك ما يعيقك عن الذهاب الى المحطة ، فيمكنك مقابلتي في لوكاندة فكتوريا

فرغ كمال من تلاوة هذا المكتوب ، فلم يتمالك نفسه من التعبير عما كان يختلج في نفسه اثناء تلاوته ، فعبَّر عن تأففه بكلمات تكاد تكون مسموعة : «متى تحل عني يا قريبي ! ؟» فقد مضت ثلاثة اعوام تقريباً ، كان كمال في خلالها ، على اتصال بابن عمه هذا ، بين حين وآخر ، فتكونت في نفسه عقيدة راسخة — هي انه لا يقدر ان يتخذ من قريبه هذا صديقاً . لانه وثق من ان صداقته له لن تجرّ وراءها مغنماً له ، وكان من الواجب على قريبه ان يفهم هذا من نفسه ، فلا يتعلق باهداب هذه الصداقة المتكافئة ، سيما وانه لم يجد من كمال أي مشجع على الابقاء على اسباب المودَّة بينهما . فهو يذكر الآن ان شاكراً طلب اليه ذات مرة ان يوافيه بمعلومات عن كيفية استخراج رُخص السيارات — وكان هذا ميسوراً في مدينة اسيوط وحدها ، حيث كان كمال يقيم آنئذ ، لكنه ترك هذا المكتوب من غير ان يرد عليه مدة تزيد عن شهر ، ولما عنّ له ان يرد عليه ، كتب كلمات جوفاء كان في امكان شاكر ان يعتبرها ماسة بكرامته سيما لدى ذكره صلة القرابة التي بينهما . لكنه لما التقى بكمال فيما بعد اظهر له كل علائم المودة والتلطف . على ان كمالاً لم يكن راغباً في تمكين روابط الصداقة معه ، على رغم اعترافه بان هنالك اسباباً وجيهة تدعو الى تقوية أواصر المودة بينهما . لان شاكراً شاب ذو شخصية

جذابة . وفوق ذلك فهو مثقف ، ومن عنصر طيب كريم ، وقد اظهر في الماضي نحو كمال اسمى مجالي المودة والمجاملة ، وقام له بخدمات جليلة تُذكر فتُشكر . ولكن عقبة كأداء كانت تقف في وجه كمال كلما همَّ بان يتخذ من شاكر صديقاً له — هي ان قريبه شاكراً نبت من فرع مسيحي في شجرة عائلتهما المشتركة . لان جده الاكبر كان قد اعتنق المسيحية منذ مدة تقرب من سبعين عاماً . وكان قد اتصل بعلم كمال ان هذا الحادث الجلل ادى الى سفك دم فتى من افراد العائلة السالفين ، اسمه موسى ، فلقى حتفه حينما كان عائداً الى منزله في ليلة ليلاء — فتىً ولا كل الفتيان ! فظن سكان الحيّ ان هذه بداية فتنة تندلع لهبها فتأكل الاخضر واليابس . فالحقد نارها ، والاخذ بالثأر شرارها ، والناس وقودها . لكن شيئاً من هذا لم يحصل ، ولا يُنتظر حصوله الآن ، لان تلك الحادثة اصبحت نسياً منسياً . ولكن بالرغم من ذلك ، فان هذا الفارق الديني ، كان قائماً باستمرار في ذهن كمال ، فاقام في نفسه على الدوام ، حجاباً من الجفاء بينه وبين قريبه

ولما خلا كمال الى نفسه ، متفكراً في هذه الحال ، لم يجد لنفسه بُداً من مصادقة قريبه هذا ، لان شاكراً — على عكسه هو — من ارباب اليسار . وكل من كان مثله على جانب من اليسار ، والجاه ، والنفوذ ، في هذه الحياة الدنيا ، لن يعدم انساناً يطلب وده لينتفع بما له من نفوذ ، كتكئةٍ يصل بها الى ما يروم من مركز ، أو جاه ، أو يسار . من اجل هذا وحده ، كان كمال يفكّر في امكانية مصادقة شاكر . وشرع يعيد النظر فعلاً في قراره السابق ، القاضي بمقاطعته . فاستولت الحيرة على عقله مدة من الزمن ، لكنه لما احال

الامر على الزمن ليفكر فيه ملياً ، عاد اليه حقده القديم ، وملك عليه كل مشاعره ، فصمم على عدم مقابلة قريبه شاكر ، ومزّق المكتوب إرباً إرباً ، وألقى ببقاياه من النافذة

* * *

لما آذنت شمس ذلك اليوم بالمغيب ، كان كمال قد أعياه التعب ، فانبعثت من اعماق نفسه آهة عميقة ، وجلس مستلقياً على مقعد في احد المقاهي الواقعة في قلب المدينة ، والقى بطربوشه جانباً ، وبدأ يطرد الحرّ عن وجهه بجريدة كانت معه . وقد احس بوحدة موحشة بين جماهير تلك المدينة التي لا تعطف ولا تشعر

وفيما هو على هذه الحال ، اذا به يسمع تحية المساء تُلقى عليه من شاب كان جالساً تجاهه يرقب حركاته بكل اهتمام منذ جلوسه ، فرد عليه التحية بافضل منها . وسرعان ما القى هذا الشاب نظرة أخرى على بطانة طربوش كمال الموضوع على الكرسي رأساً على عقب ، حتى قرأ اسم كمال عبد السيد مكتوباً عليها ، فطفق يقول لكمال :

«عفواً سيدي ! ألستَ انت كمال افندي عبد السيد » ؟

تطلع اليه كمال ، لكنه لم يستطع ان يذكر انه رآه من ذي قبل . ومع انه لم يكن يدري كيف امكن ذلك الشاب ان يعرف اسمه ، الا انه رد عليه قائلاً : « نعم سيدي فهذا هو اسمي ، ولكن هل ترغب في ان تشرّفني بمعرفة اسمك ؟ »

« شكري جيد يا سيد ! هذا هو اسمي . ألا تذكر من هو شكري

جيد؟ . . . . أنا احاول الآن ان اذكر آخر مكان رأيتك فيه ، لاني لم ألتقِ بك منذ مدة مديدة » . واذ تبين من لهجة كلام كمال انه صعيدي ، قال له « . . يغلب على ظني اني رأيتك في اسيوط ، أليس كذلك » ؟

فاجابه كمال : « قد يكون . لاني قضيت بعض الزمن في أسيوط»

قال شكري : «اي نعم . في أسيوط .. في أسيوط . . أكاد ان اذكر الآن ماذا كنت تعمل هناك »

فاجاب كمال : « كنتُ وقتئذٍ اشغل وظيفة كاتب مؤقت»

قال شكري : « اي نعم . فانني اذكر على اي حال اني رأيت وجهك يوماً ما. من اجل ذلك قلت في نفسي. لا بد لي من التحدث الى هذا الشاب الذي عرفته يوماً» . ثم استطرد في القول : «وماذا أنت عامل هنا في القاهرة الآن » ؟

فرد عليه كمال قائلاً : « لا اكتمك اني جئت هنا أبحث عن وظيفة »

قال شكري: «ألم تجد وظيفة الى الآن» ؟

اجابه كمال : « كلا . الظاهر ان ابواب الوظائف موصدة دوني الآن »

فسأله شكري : «في أي سلك من الوظائف تريد ان تنخرط » ؟

اجابه كمال : « انني على أتم استعداد لأن اشغل أية وظيفة . ومع اني تقدمت طالباً وظيفةً كتابية في احدى شركات الشحن لأتسلى بها ريثما أجد وظيفة أفضل ، الا ان طلبي لم يحز قبولاً بعد »

فقال شكري بخبث ودهاء : « لا شك في أن تسكعك هنا وهنالك

وأنت تطرق أبواب الوظائف المختلفة ، يستنفد ماليتك بسرعة هائلة . فضلاً كونه مضيعة لجهودك ، واستنفاداً لهمتك ، وارهاقاً لصحتك

اجاب كمال بحذق ومهارة : « ولكنني لم اصل بعد الى هذه الحال التي انت تصفها . فلم يزل في جيبي ما يكفيني للصرف والانفاق ردحاً آخر من الزمن . وعلى كلٍّ فأنا لا اكتمك هذه الحقيقة : وهي ان البحث عن وظيفة ليس من الهنات الهينات ». قال كمال هذه الكلمات ، ولم يخطر لباله ان محدثه يحاول بكل خفةٍ ولباقة ، أن يستدل على مبلغ ما عنده من مال

فقال شكري : « ومن حسن حظك انك التقيت بي في هذه الآونة . ومع انني لا أقدر ان أعدك بشيء معيّن في الوقت الحاضر ، الا ان صديقي وليم — وليم ابو قير — جادٌّ في البحث عن وكلاء له في اعماله الواسعة المختصة بأدوات الكتابة . تنبه لكلامي ! أنا لم اقل لك انه سيقبلك في عمله ، ولكننا اذا استطعنا ان نترضى وجهه ، فانه على الاقل يقبلك على سبيل التجربة . فهل تسمح بمرافقتي لاقابلك به » ؟

اجاب كمال متلهفاً — « بكل تأكيد . ومتى يمكنك ذلك » ؟

قال شكري — « غداً في الساعة السادسة نلتقي في هذا المكان فنتدبر الأمر »

اجاب كمال — « حسن جداً »

* * *

في احد اركان مقهى معروف بـ « قهوة رمسيس » ، اجتمع فريق من الشبان وطفقوا يتصايحون و يصخبون . وكانوا كلهم ملتفين حول شاب حسن

البزّة ، مرتدٍ « جاكتة » زرقاء ، « و بنطلون » فنلة أبيض ، « و كرفتة » حمراء . كان هذا الشاب موضوع اعجابهم وفخرهم فكان التفافهم حوله نظير إحاطة الهالة بالقمر . وكان هو جالساً وسطهم رابط الجأش ، معتداً بذاته ، شاعراً بمركزه بينهم . فخوراً بسيارته الفخمة التي كانت تنتظره في أحد الأركان ، شديد الاعجاب بطلعته البهية . ويمكننا ان نلتمس له بعض العذر في اغتراره بنفسه ، واعتزازه بذاته ، متى ذكرنا انه كان مركز الدائرة وسط اخوانه . فكل الكلام موجه اليه ، هذا يسأله في هذه المسألة ، وذاك يستفتيه في تلك ، والكل يقول : « يا وليم . . » ! فلا غرابة اذا انتفخت اوداجه برياح الزهو والخيلاء . وكان كمال في زمرة هؤلاء الشبان المعجبين بوليم ، سيما وقد فاز منه بشبه وعد بأن يعيّنه في احد توكيلات شركته المزعومة . او على الاقل انه ضرب معه موعداً ليفاوضه في الامر . فضلاً عن ذلك ، فان مظاهر الجاه التي كانت تحفّ به ، كانت تكفي لاكتساب اعجاب كمال واعتباره . واذ أُخذ كمال بهذه المظاهر الخلاّبة ، نسي نفسه وسط زمرة الشبان اللاهين الماجنين ، فاندمج بينهم وصار يحتسي الخمور معهم . اما تأنيبات الضمير التي كانت تعذّبه في بداية الامر ، فقد لانت حدّتها وخفت وطأتها ، فأضحت في النهاية نسياً منسياً . فلا تحسبه سَكِراً ولو انك تراه ثملاً مترنحاً ، او على الاقل ، لا يريد هو ان يعترف بحقيقة حاله بعد ان صار نشوان . ولشدة دهشته وجد نفسه متمازجاً مع هذه الجماعة فلا يشعر معهم بأقل كلفة . فكان جالساً في معشرهم يصيح ويصخب ، ويغرق في القهقهة بصوت قاصف كالرعد . وصار يشرب بغير تردد ما كان يصبه له شكري في الكأس — اذ كان جالساً بجواره

ولم يمضِ عليه بعض الوقت حتى أحس بغشاوة بُسطت على نظره، فاضحت وجوه جلسائه محاطة بهالة من الغموض والابهام، فلم يعد يتبينها بوضوح وجلاء وتباعدت اركان المكان امام عينيه، فكان يراها كما من خلال طبقة من الضباب. فشعر الآن كأنه غارق في بحر من الاحلام

ومع انه لم يكُ يدري ما حدث له بالتمام، ولكن قد خُيِّل اليه ان زملاءه اركبوه معهم سيارة وليم، فانطلقت بهم في طريق الاهرام!

وفي الصباح استيقظ، واذا به في عالم آخر — عالم الحقائق المرة الاليمة. وكان الطقس في ذلك الصباح اكثر برودة من المعتاد. ولفرط دهشته اتضح له انه كان نائماً على فراشه وهو مرتدٍ بذلته وحذاءه. ناهيك عن الصداع الشديد الذي كان يحس به. ولا تسأل عن الحيرة والحسرة والشقاوة التي ملكت عليه كل مشاعره، حين فتح محفظة نقوده فتبين له انه سُلب كل ما كان عنده من الاوراق المالية، ولم يتبقَّ لديه سوى تسعين غرشاً كان محتفظاً بها في جيبٍ آخر

ومع ان ذهنه كان في غاية الاضطراب والانزعاج، الا انه استطاع ان يستجمع افكاره لحظة، فتحقق ان نُدماءه في تلك الليلة الليلاء، هم الذين استولوا على ما كان معه من مال. اما زميله في غرفة النوم، فكان أبعد الناس اتياناً لهذه الفعلة الشنعاء، لانه ترك حقيبته في الغرفة على أمل ان يعود اليها فيما بعد

وقد تقوى لديه الاقتناع بأن ندماءه هم الذين نهبوه، عند ما أدرك ان العنوان الذي اعطاه اياه وليم، لم يكن الا عنواناً مزيفاً. فقد اتضح له ذلك

اثناء النهار — ولكن بعد فوات الفرصة . ولم تبقَ لديه بارقة أمل بالاهتداء الى شكري جيد . لانه هو الآخر لم يترك باباً لكمال ليهتدي به اليه

اما عن اللائمة التي أنحى بها على نفسه نتيجة صيرورته ألعوبة في أيدي اصدقاء السوء ، فحدِّث عنها ولا حرج . ولما عاد الى غرفته في ذلك المساء ، قطع على نفسه عهداً لا رجعة فيه : ان ينتقم لنفسه انتقاماً لا يعرف باباً للرحمة والحنان . ولم يغمض له جفن في تلك الليلة ، الا بعد أن تناصف الليل . وفي رقاده كان نومه متقطعاً . ولكن لم يفته قبل ان ينعقد الكرى على جفنيه ، ان يفكر طويلاً ، ويعيد النظر في تصميمه على مقاطعة قريبه شاكر

الفصل الثالث

«اجلس هنا قليلاً في هـذه الردهة، ريثما أصعد الى الطابق العلوي لاغير ملابسي فسأعود اليك بعد برهة وجيزة. تفضل استرح»

فجلس كمال على «الفوتي» في ردهة لوكاندة فكتوريا، وهو يرقب باهتمام حركات شاكر بطرس قريبه ومن خلفه الشيَّال وهما يستقلان المصعد الى الدور العلوي، فقد وصلا تواً من المحطة — و بصحبتهما كمال — في سيارة اجرة لان كمالاً كان قد ذهب الى المحطة لينتظر قريبه في اكسبريس الصعيد الذي بلغ القاهرة في تمام الساعة السابعة

قضى كمال نحو عشرين دقيقة في انتظار نزول قريبه من الدور العلوي وكان في هذه الاثناء يلهو بتقليب صفحات جريدة: «لابورص اجبسيان»، من غير ان يعير كلماتها أدنى التفات، لأن أفكاره كانت منصرفة الى مسائل أخرى. وفي الواقع كان كمال عاجزاً عن ان يمحو من ذهنه تلك التأثيرات الطيبة التي طبعها عليه تصرف قريبه بطرس، وكان يتعجب كثيراً من اهتمام قريبه بأمره الى هذا الحد. وتبين له ان صداقة قريبه له، أنقى ما تكون عليه الصداقة. لا شيء فيها من التصنع والمداهنة، على غير عهده في كل صداقة سواها. فكان يسائل نفسه متعجباً عن السبب في كون هذه الصداقة ممتازة عن كل ما عداها. وكان يغرق في الدهشة كلما ذكر ان قريبه لا يبغي من وراء صداقته مغنماً، بل كانت على الضدّ من ذلك، تكلّف قريبه غُرماً كبيراً. لان قريبه

المسيحي كان يتحمل شيئاً من العار والهوان بسبب مصادقته له وهو مسلم ، مثلما كان يتحمل هو بسبب مصادقته لقريبه المسيحي

كان كمال غارقاً في بحار هذه الافكار والتأملات ، واذا بقريبه يفتح باب المصعد ويتقدم مقترباً منه . اما قريبه هذا ، فهو شاب طويل القامة ، بهيُّ الطلعة ، مليء الجسم ، منتصب في مشيته . يبلغ من العمر الآن — حسب تقدير كمال — سبعة وعشرين عاماً . فهو بذلك اكبر منه في السن قليلاً . وهو بوجه عام حسن الهندام جميل البزَّة ، من غير ان يكون متأنقاً . كان وقتئذ مرتدياً جاكتة من القماش الصوفي الكحلي ، وبنطلون فنلة ابيض اللون ، وحذاء بعضه بُنيّ اللون ، والبعض الآخر أبيضه

واذ همَّ كمال بالقيام ، قال له شاكر : « لا داعٍ لقيامك الآن فالوقت لم يزل بعد مبكراً . لان الساعة لم تزد عن السابعة ونصف الا يسيراً . وها قد وجدت في غرفتي ، حيث كنتُ الآن ، مكتوباً مرسلاً اليّ من صديقي القديم الخواجا بولس خليل ، الذي تعرفت عليه منذ سني اشتغالي بدراسة الطب . وهو يدعوني في مكتوبه هذا الى تناول العشاء معه في لوكاندة الكونتنتال في الساعة الثامنة من هذا المساء . وحالاً خاطبته تلفونياً كي ينتظرك وايايَ في هذا العشاء . فاظهر كل ترحيب بقدومك . فهل تتكرم بالذهاب معي » ؟

أجابه كمال على الفور : « شكراً ! شكراً ! » . وكان في تعبيره هذا مظهراً قبوله الدعوة ولو انه لم يتمالك نفسه من التفكير في موقفه الشاذ الذي سيضطر أن يقفه أثناء تناوله العشاء مع شخصين مسيحيين لا يشاطرانه عقيدته وميوله فقال شاكر . « حسناً . فلننتظر هنا حتى يحين الموعد ، ومن ثَمّ نتمشى

سوية على مهل . فالمكان لا يبعد عن هنا سوى بضع خطوات . والآن حدثني يا أخي كيف قضيت وقتك هنا ، فقد مضى عليك اسبوعان مذ ان جئتَ الى القاهرة »

أجابه كمال : «اي نعم فقد قضيت في القاهرة اسبوعين الا يوماً . ولقد كانت اياماً عصيبة عليَّ بالحقّ» . ثم طفق يحدثه عما صادفه في هذه المدة من صعاب، لكنه كان حريصاً كل الحرص على ألاَّ يذكر له شيئاً من التفصيلات التي توقفه موقفاً معيباً في نظر قريبه — كحادثة سكره ، وحالته المشينة التي فيها جردوه من كل ما كان لديه من مال . ولكنه لمح له عن هذا الحادث تلميحاً خفيفاً فذكر لقريبه انه التقى يوماً في أحد المقاهي بشخص يدعى وليم افندي وانه وعده شبه وعد بأن يجد له عملاً . وعبثاً حاول ان يهتدي اليه في محل عمله المزعوم

فقال شاكر : «في الواقع كنت اثناء سفري بالقطار ، افكر في بعض معارفي من رجال الاعمال في القاهرة . لاني سبقت فتعرَّفتُ الى بعض القوم اثناء اعتكافي هنا على دراسة الطبّ . ولكن من أدرانا ، ربما اذا فزتُ باقناع أحد منهم بأن يجد لك عملاً عنده، لا يكون هذا مرضياً لديك . فكلهم على شاكلة واحدة كما تعلم »

— : «وماذا تعني بهذا» ؟

— : «اقصد انهم ليسوا مسلمين» !

فقال كمال بلهجة التأكيد: «لا فرق عندي بين مسلم وغير مسلم في هذا الباب. فأنا راضٍ بأي شيء ما دمت في ظروفي الحرجة هذه» . وكأنه أحس

باندفاعه في التفوه بهذه الكلمات ، استدرك نفسه وقال : «اقصد بهذا انني اقدّر أجمل تقدير كل خدمة يمكنك ان تؤديها لي»

— «عفواً . فمن دواعي سروري ان تتاح لي فرصة اقوم لك فيها بأية خدمة . انما العقبة الوحيدة التي امامي في هذا السبيل هي انني لا استطيع ان اطيل المكوث هنا في القاهرة ، ولديّ بعض المهام التي يجب عليّ انجازها قبل سفري ، وجلها متعلق باستخراج جواز الانتقال ، وإعداد تذكرة السفر. ثم لدي مقابلة مع القنصل البريطاني . كل هذا علاوة على زيارتي لبعض الاصدقاء الذين لا يتاح لي ان اراهم مرة اخرى الا بعد مرور عام . عدا ذلك ، ليس لديّ أمر خاص يحملني على اطالة البقاء هنا . وقد خطر لي ان اقضي بعض الايام في رمل الاسكندرية ، لانتفع بحمامات البحر هناك. على ان هذا ليس بالامر الهام . وعلى كل فساعمل جهدي لارى ماذا يمكنني ان أؤدي لك من خدمات . ولكن ألا تظن ان الوقت قد حان لنذهب الآن الى فندق الكونتنتال . لنتمتع بالهواء العليل على شرفة ذلك الفندق الجميل؟»

وما هي الا دقائق معدودات قطعاها في السير سوية في شارع ابرهيم باشا الذي كان يعج بالضوضاء ، حتى بلغا مدخل الفندق ، المتألقة فيه الثريّات الكهربائية . فصعدا فوق درجات المدخل الرخامية المفروشة ببساط من المخمل الاحمر ، وانتحيا ناحية في شرفة ذلك الفندق ، وهناك جلسا حول مائدة صغرى مصنوعة من خشب الصفصاف ، واقعة في كنف نخلة مترامية الاطراف ، منتظرين مضيفهما . و بعد هنيهة لمحاه بين القادمين

حان وقت العشاء . فمدت امامهم المائدة بما أعد عليها من شهي الطعام،

فاكلوا هنيئاً ، سيما كمال الذي كان يود ان تطول فرصة العشاء الى ما شاء الله . ومع ان اصناف الطعام كانت مهيأة على الطريقة الغربية ، الا ان كمالاً كان يلتهمها كلها التهاماً . اما حديث المائدة فقد كان طلياً عذباً . غير انه كان على نوع ما غريباً على مسمع كمال . لكنّ شيئين ، بنوع خاص ، قد تركا في نفسه أثراً عميقاً لدرجة فيها صارا موضوع حديثة مع أصدقائه في مستقبل الايام

فمن ذلك : انه يذكر كيف كان وجه قريبه مشرقاً بلمعان خاص ، وبدت عليه علائم الانفعال عند ما خاطبه الخواجا بولس قائلاً :

— « كيف احوال آل ناشد ؟ فقد انقطعت عني اخبارهم منذ مدة ! »

اجابه شاكر — « على ما يرام . فلعلك سمعت بان موريس نال شهادة البكالوريا . وكان نجاحه فيها بتفوق يُذكر فيشكر »

— «صحيح ؟ لم اسمع بهذا الخبر الطيب. انه لشيء جميل حقاً . لكنه ليس بمستغرب . فهذا ما عهدته في ذلك الفتى . وكيف صحة ماري؟» نطق الخواجا بولس بهذه العبارة الاخيرة ووجّه معها ابتسامة ذات معنى خاص الى شاكر

— «اشكرك كثيراً على سؤالك عنها ، فان اخبارها جيدة . وسأريك الآن آخر صورة لها » . وهنا اخرج صورتها الفوتغرافية من « محفظة » كان يحملها في جيبه ، وسلمها الى الخواجا بولس الذي كان يعرف عائلتها بعض المعرفة

— «فتاة ظريفة حقاً ! يلوح لي انها الآن أجمل منها في اي وقت مضى»

أجابه شاكر : « في هذا نحن متفقان — هل تسمح ان تطلع كمال

افندي على الصورة ؟ — ثم حانت منه التفاتة الى كمال وقال : « هذه صورة خطيبتي ماري ناشد ، يا كمال» ثم التفت الى الخواجا بولس وقال : «طبعاً لم ترحب خطيبتي بعزمي على التغيب في انجلترا مدة عام أو يزيد »

اما كمال فقد تملكه العجب ، وصار يسائل نفسه عن السر في ارجاء زواج شاكر الى ما بعد هذا الاجل الطويل ، وكان في نفسه معارضاً أشد معارضة في معاشرة شاكر لخطيبته، هذه المدة المديدة ، قبل اقترانه بها

فطفق شاكر يقول : « طبعاً لم نكن نود تأجيل الزواج الى هذا الحد . لولا ان خطيبتي انتهت من كلية البنات بالقاهرة في هذا العام فقط ، وقد اظهرت رغبتها في ان تقضي وقتاً مع والدتها في البيت . وامام هذا العذر القهري لم يسعني الا التسليم »

فقال الخواجا بولس: «لا شك في انك ستعاني في انجلترا وحشة الفراق وألم البُعاد » .

— « طبعاً . ولكن البركة في البريد . فالمكاتبة نصف المشاهدة » .

قال شاكر هذه العبارة ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة بريئة شريفة

هذه مرة أخرى شعر فيها كمال بشيء من الامتعاض . ولكنه فرّج عن نفسه بقوله في اعماق نفسه : «وهكذا يتصرف المسيحيون في شئونهم» !

ثم قال بصوت مسموع :

«انا اعلم ان الاجانب كثيراً ما يؤجلون الخطبة بعض سنين . ولكنني لا أستطيع ان ادرك السر في هذا » !

اجابه شاكر : «وأنا أيضاً لا ادري تماماً . فربما كان الغرض من ذلك

ان تتاح للخطيب والخطيبة فرصة يتعرف فيها احدهما بالآخر ، قبل ان يخطُوَا تلك الخطوة التي لا رجوع فيها . ولكي يتحقق كل منهما من محبة الآخر له ومن محبته هو للآخر . أليس هذا هو السبب الحقيقي ؟

فقال الخواجا بولس: «اعتقد شخصياً ان في هذا ميزة واحدة على الاقل. وهي اعطاء الخطيب والخطيبة فرصة يدرس فيها احدهما خُلق الآخر ، فيعرف ما له من حسنات وما هو عليه من سيئات ، ولكي يتحققا من ان محبة احدهما للآخر تتزايد بالرغم مما يعلمه كل منهما عن نقائص الآخر. وفي اعتقادي ان فرصة الانتظار لا تخلو من فائدة مهذِّبة ، سيما للخطيب . فليس بخاف ان كلاً منا له « نتوء » و «زوايا » في اخلاقه يجب ان تُصقل وتهذب . وقد لاحظت في المرار الكثيرة التي أتيحت فيها للخطيب والخطيبة فرصة ليتعرَّف فيها احدهما بالآخر ، مدة عام أو عامين قبل الزواج، ان الخطيب بنوع خاص ، قد تحسن تحسناً يذكر ، في آداب سلوكه ، قبل حلول موعد الزواج »

أجاب شاكر وعلى فمه ابتسامه الاطمئنان والرضى : « أراك قد صرحت بوضوحٍ وجلاء ، اننا كلنا في حاجة الى شيء من الصقل والتهذيب، وان المرأة هي خير من يقوم بهذه العملية الشاقة » !

كان هذا الحديث غاية في الغرابة على مسمع كمال ، لدرجة انه فضل ألاَّ يشترك فيه الا بالنذر اليسير من الكلام

وهنالك أمر آخر تعجب منه كمال — هو انهم بعد انتهاء العشاء، خرجوا جميعاً الى شرفة الفندق ليستمتعوا بالهواء الطلق ، فعرض عليهم خادم الفندق

قائمة باسماء ما لذّ وطاب من أصناف الشراب . فما كان منهم الا أن رفضوها بما فيها ، بكل شمم واباء

قال شاكر : « ان أنسَ لا أنسى علامة الاستغراب التي انطبعت على مُحيّا أحد الجالسين معي يوماً ما ، حين رآني أرفض مسكراً . وأذكر ان اسم ذلك الشخص — احمد افندي جابر . فقد تصادف ان جلس أحدنا تجاه الآخر في عربة الأكل بقطار السكة الحديدية ، من مرسليا الى ليون . ولما كنا نحن الاثنين من مصر ، كان من الطبيعي ان تتجاذب أطراف الحديث ، ولما لاحظ هو مني اني لم أطلب من «السفرجي» سوى الماء القراح ، لم يتمالك نفسه من القول : « كنت اظن انكم يا جماعة المسيحيين تتعاطون الخمور والمسكرات أما انا ، فمع كوني مسلماً ، كما لا يخفى ، لا أجد مانعاً من ان أتناول كأساً بين حين وحين . وهكذا يفعل الكثيرون منا في هذه الايام من غير حرج» . هذه كانت وجهة نظره في هذه المسألة . لكن قد غاب عنه الباعث الذي يحملني أنا الغير المسلم على عياف المسكرات . فما رأيك في هذا يا كمال ؟ أحقاً ان المسكرات فاشية بين المسلمين في هذه الايام» ؟

أما كمال ، فقد كانت ذاكرته محتفظة بحادثة طريفة ، وقعت لزمرة المدمنين المعربدين ، منذ بضع ليال ، لذلك أجاب قائلاً : «نعم سيما الشبان الغير المتدينين كثيراً ، لانهم يحسبون انفسهم أحراراً من أحكام القرآن والحديث »

— فقال شاكر : ان وجهة نظرنا في هذه المسألة — او على الاقل ان وجهة نظري الخاص — هي : «ان كل شيء مضر بالجسد ينبغي الامتناع عنه . وان لكل انسان الحق في ان يحكم لنفسه في مثل هذه المسائل . أليس كذلك» ؟

ولما حانت الساعة العاشرة ، انفرط عقد اجتماع هؤلاء الثلاثة . فقال الخواجا بولس وهو نازل عن درجات مدخل الفندق : « انها لسهرة مأنوسة بالحق : ومن دواعي سروري وارتياحي اني حظيت بملاقاتكما بعد طول افتراقنا »

ثم قال شاكر مودعاً : « غالباً لا تتاح لي فرصة أخرى لتوديعكما قبل سفري »

— لا بأس. فنحن نعلم أن اوقاتك مكتظة بمشاغل السفر. مساء الخير».

فاه الخواجا بولس بهذه الكلمات ، ثم استقل عربة كانت بانتظاره

اما كمال ، فقد سار مع شاكر قاصدين الفندق الذي كان ثانيهما نازلاً فيه . وقبيل افتراقهما قال شاكر لكمال : « يمكنك مقابلتي هنا في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين القادم ، لاقدّمك الى صديق لي ، يشتغل في شركة الجير والاسمنت ، علّه يستطيع ان يجد لك عملاً »

اجاب كمال وهو يودّع قريبه : « اشكرك . وسأجيء اليك هنا في هذا الموعد »

* * *

في عصاري الخميس ، اجتمع فريق من الشبان ، حول نافذة احدى عربات الدرجة الثانية في قطار واقف على محطة العاصمة . وكان كمال في زمرتهم . اما قريبه شاكر فقد كان يتحدث مع اصدقائه بغير كلفة . وكان بعض منهم يقهقه ضاحكاً لدرجة استرعت التفات المشاهدين

— « لا شك انك ستحضر معك زوجة انجليزية يا شاكر ! أليس

كذلك ؟ » هذه هي الكلمات التي سمعها شاكر ، من شاب طويل القامة كان واقفاً مع جمهور المودعين

أجابه شاكر : « وأية فتاة انجليزية تقبل ان تقترن بي ؟ اني لست جميلاً بالقدر الكافي . ولا شك انك انت تسبقني في هذا المضمار . فانت أولى بالزوجة الانجليزية مني سيما وانت تملك سيارة صغيرة من طراز اوستن»

فاحدثت هذه الكلمات ضجة بين المشاهدين

اجابه ذلك الشاب الطويل القامة : «لن يكون هذا . فليس في مقدور أي شاب ان يسوق سيارة ، وان يسوس امرأة في وقت واحد في هذه الايام ! فما عليه الا ان يختار واحدة من اثنتين ، السيارة ام المرأة »

ثم قال شاكر موجهاً الكلام الى جماعة المودعين ، ومشيراً في الوقت نفسه الى ذلك الشاب الطويل القامة : « وعلى هذا القياس اختار عباس ان يسوق سيارة ، لانه وجد ان هذا ايسر له من ان يسوس امرأة » . وهنا علت من الواقفين عاصفة من الضحك والقهقهة

الآن دقّ جرس المحطة المنذر بقيام القطار بعد خمس دقائق . فطلب شاكر الى كمال ان يوافيه الى عربته

— « سهي عليّ ان اسألك عن موقفك المالي في هذه الآونة . فلعلك الآن في حاجة الى نقود ! »

— « حقيقة الواقع اني الآن مفلس مُعدم لاني . . . . . »

فقاطعه شاكر قائلاً : « خذ هذه القيمة الآن ، الى ان تقبض اول

مرتب لك. ولا تتعجل في رد هذا المبلغ اليَّ ». قال شاكر هذه الكلمات، وهو يسلِّم كمال مظروفاً كان بيده

فشكره كمال وأثنى عليه. وبعد ان ودّعه عاد فوقف مع جمهور المودعين الواقفين على الرصيف، واذ تحرك القطار لم يسعه الا ان يضم صوته الى صوت المودعين الداعين لشاكر بسلامة السفر، وطيب الاقامة، وجميل العودة

* * *

«لا بد من مجيئك يا كمال، فهذا امر لا جدال فيه، اتفهم ما اقول؟» فاه نقولا بهذه الكلمات، وضرب بقبضة يده على مكتب كمال. حدث هذا في الساعة الخامسة ونصف بعد الظهر. وكان قد مضى على كمال بعض الزمن مذ ان حصل على وظيفة عند صديقٍ لشاكر. وكان كل الموظفين قد انصرفوا الآن، فلم يبق الا هذان الشابان

— «واي صنف من الناس هؤلاء؟» فاه كمال بهذه العبارة وعليه علائم عدم المبالاة بالاقتراح الذي قدمه له صديقه

— «هم افضل اناس في الدنيا يا كمال، خذ هذا الكلام مني على علاّته. وفي استطاعتنا ان نقضي الوقت في الحديقة، وانت تلهو بلعب الورق أو في السباحة في البركة. واي شيء ألذّ من هذا، نستطيع ان نقضي فيه صباح الاحد؟»

فبدت على كمال علائم الميل الى الاخذ باقتراح صديقه اكثر من ذي قبل. ثم قال:

— «هذا كلام طيب».

— «ان الامر المهم لديك يا صديقي العزيز ، هو ان تسأل عما هو اصلح لك وافيد . لان الفرصة ستتاح لك بان تتعرّف بصديقنا القديم — « عبد المغيث » . فاذا كنت تنال حظوة لديه — وما اعهدك الاَّ كذلك — فانه في الغالب يعينك في احدى الوظائف الخالية عنده. فليس من الصالح لك، ان تظل منزوياً في هذا الركن ، كل ايام حياتك . أليس كذلك ؟ »

اجابه كمال : « ان مرتبي في هذا المكان ليس كبيراً . ولكن كان من الممكن ان يكون اقل من هذا بكثير . والشيء الوحيد الذي احبه في هذا المحل ، هو انه لا يؤخر لي اجراً . وانت تعلم ان المحال التي تعامل موظفيها بهذه المعاملة الطيبة ، ليست بكثيرة »

اجابه نقولا وهو يهز كتفيه : « قد يكون . ولكن عليك ان تلاحظ امر مستقبلك . فليس من الحكمة في شيء ان تظل نسياً منسياً . تعال معي يوم الاحد الآتي ، لنستمتع معاً ببعض ساعات الحظ واللهو »

قال له كمال « لا اعتراض لي على ذلك مطلقاً يا نقولا ، فانت تعلم اني اسر بالوجود في كل حفلة أجد فيها مجالاً للحظ »

— «وهنالك امر آخر ، قد يستميلك الى مرافقتي . فان رب البيت له ثلاث بنات غاية في الجمال ، وهن اجمل مَن شاهدت في حياتي» . قال نقولا هذه الكلمات ثم حانت منه الى كمال التفاتة ذات معان . ثم استطرد في القول: « لم اقصد بكلامي هذا انك ستلتقى بهن يوم الاحد، لان والدهن لا يسمح لهن بالاختلاط بالشبان لانه رجل من الطراز العتيق. ولكنني اعدك انك

اذا احسنت التصرف ، فقد تفوز باكثر مما تطلب أو تفتكر» . فربت نقولا بيده على كتف زميله ، وانطلق كلاهما في الضحك والقهقهة

— « لا تؤاخذني اذا القيت عليك هذه النصيحة يا صديقي العزيز ، وهي ان تكون شديد الاحتراس في كل حركة تبدو منك ، لان رب العائلة يمقت كل فتى مهذار . فكن مثالاً للشاب الاديب ، الاريب ، الأبي النفس»

— «هل تعتقد جدياً يا نقولا أننا من وراء هذا التعب سنمسك صيداً؟»

— «لا شك في هذا يا صديقي ، لا شك في هذا»

— « هلم بنا خارجاً لنتحدث في الأمر ملياً . هل احضرت سيارتك معك ؟ » .

— « تفضل . اظن انه من المناسب ان نقصد ذلك المقهى الخلوي ، الكائن في الجيزة . ألا توافقني على ذلك ؟ » ؟؟

الفصل الرابع

نحن الآن في غرفة فسيحه فخمة ، يتألق فيها مصباح كهربائي ، يتدلى فوق مكتب امريكي . وامام هـذا المكتب يجلس شاب منشغل بتقليب صفحات مجلد ضخم ، بكل اهتمام ، وعلى جدار هذه الغرفة ساعة كبرى دقت الآن ست دقات . ايذاناً بانصراف عمال المكتب ، لكن كمال ظلّ في مكانه لانه كان منتظراً قدوم صديق بين آونة واخرى . فضلاً عن ذلك فانه كان مكباً على قراءة الكتاب الذي امامه بكل لذة واهتمام . وكانت امامه ايضاً مجلدات اخرى مبعثرة فوق المكتب وكان هو بين حين وآخر يتناول قلمه و يكتب به عملية حسابية على احدى الاوراق الصغيرة المتناثرة امامه

وما هي الا هنيهة حتى أقبل عليه شاب يكاد يكون عمره مماثلاً لعمر كمال ، او يزيد عنه عاماً او اثنين فتقدم محيياً كمالاً بكل غبطة وانشراح :ـ

ـــ «مرحى بكمال الصديق القديم! يلوح عليك انك تجهد نفسك كثيراً في الشغل ، لدرجة يظن فيها من يراك انك تشتغل بكل أمانة كما لو كنت انت رب العمل لا أجيراً فيه لانك من كثرة اهتمامك خلعت عنك «جا كتك» ، وشمرت عن ساعدي جدك »

اجابه كمال: « كنت مترقباً قدومك بين آونة واخرى يا صديقي مصطفى ولم يكن لدي عمل خاص سوى التلهي بهذه الاوراق وأنا في انتظار قدومك الميمون . فكيف حالك الآن وكيف قضيت يومك ؟ »

ـــ « ان كنت تعني الامس ، فقد كان يوماً لطيفاً بالحق ، لاني كسبت

فيه ربحاً صافياً مقداره : مائة وسبعة وثمانون قرشاً في احد محال المراهنة . اما عن يومي هـذا ، فلم أخرج منه بربح يُذكر، وان كنت لم اخسر فيه شيئاً ، وهذه نتيجة لا بأس بها ، اليست كذلك ؟»

أجابه كمال: «لا ادري ماذا اقول لك يا مصطفى . فقد قضيتُ طوال السنة المـاضية وانا على مثل هذه الحال التي تصفها ، لذلك ادركني الملل في النهاية »

— «يلوح لي انك لست واجداً لذة في وظيفتك هذه »

— «اما عن وظيفتي في حد ذاتها فلا بأس بها. اذ عليَّ أن اقوم بعمل قليل في متسع كبير من الوقت ، ولكن وظيفتي هذه تقطع عليَّ كل سبيل الى الكسب الاضافي . هذه هي الصعوبة يا مصطفى»

—«ماذا تعني بقولك هذا ؟ أتقصد انك لا تجد مجالاً للكسب من هنا ومن هناك ؟ »

أجابه كمال بلهجة الثقة والتوكيد : « لقد اصبتَ كبد الحقيقة في قولك هذا يا مصطفى ، فمن الميسور للمرء اذا تذرع بشيء من الكياسة واللباقة ان يفوز ببعض الدراهم من هنا ومن هناك بين الفَيْنَة والفَيْنَة ، ولكن بغاية الصعوبة . لان صاحب العمل هنا رجل حريص يرقب كل صغيرة و كبيرة . وقلما تخفى عليه خافية »

و بعد ان توقف كمال عن الكلام هنيهة عاد فاستأنف الحديث :

— « ولكن فيما عدا ذلك يا مصطفى ، قد مضى عليَّ الآن عام كامل وأنا في شركة الاسمنت هذه ، أرقب حساباتها عن كثب — لانني اشتغل

بمسك الدفاتر فتبين لي مقدار ايرادات الشركة ومصروفاتها ، لدرجة وضح لي فيها مستقبلي غاية الوضوح. ولا اكتمك الحقيقة ، ان مكسبي فيها ضئيل ، فقد تبين لي من العمليات الحسابية التي قمت بها الآن ، ان الربح الصافي في الحالة الراهنة لا يزيد عن ٢٥٠ او ٣٠٠ جنيهاً في السنة ، وهو ربح غير مشجع كما تعلم»

—«ربما كان عليك ان تتمهل قليلاً ، لانك اذا بقيت في عملك هذا مدة اخرى ، فقد يؤول الأمر كله اليك بعد سنين قليلة ، لان صاحب العمل قد شاخ الآن ، وعما قريبٍ يتقاعد عن العمل ، فتتاح لك الفرصة عندئذ ان توسع دائرة عملك كما يحلو لك. فكل شيء متوقف على مجهودك ، وهمتك ، وحكمتك »

فقال كمال : « هذا كلام طيب ، ولكن ما رأيك في انني لا املك هذا القدر من الصبر الذي توصيني به ، وما المنفعة لي من الانتظار بعض سنين اخرى؟ وفوق ذلك ، فانني في هذه الآونة ، سجين هذا المكتب طوال اليوم ، لذلك لم تُتح لي الفرصة ان احيط بدقائق العمل كما يجب »

وهنا تناول كمال سيكارته وشرع في التدخين ثم استطرد يقول : « ان الأمل باستيلائي على هذا العمل في المستقبل ضعيف جداً ، لان صاحب العمل مرتاب فيَّ من جهة بعض امور تافهة ، وقد شجر بيننا خلاف بين آونة واخرى »

—«عجيب هذا الامر ، فالظاهر انك لست ماهراً بالقدر الكافي يا صديقي العزيز. اذ يلزمك شيء من المران والاختبار ، فاما ان تكون كذلك او ان

تكف عن تلك الاعمال التي تجر عليك الشبهات ، فتسلك باستقامة ولو الى حين . وانا اؤكد لك ، انه في امكانك ان تسترد ثقة رئيسك بك ، ما لم تكن قد قويت لديه الشبهات من جهتك ، فأضحت اتهامات . ومتى حان الوقت المناسب ، فانه يكل ليدك كل شيء»

اجابه كمال منفعلاً — وقد اخرج من جيبه مظروفاً كتب عليه بعض الارقام الحسابية : « أنا لا اطيق صبراً بعد الآن . فيمكنك ان تتبين ان مكسب الرجل لا يزيد عن خمسة عشر في المئة من ثمن الادوات التي يتجر بها . فاذا خصمت مصروفاته من دخله الضئيل هـذا ، الذي لا يزيد عن ثلثمئة جنيه ، يفضل له ربح صاف قدره خمسة وستون جنيهاً في العام »

فقال مصطفى : « هذا صحيح . ولكن قل لي يا كمال ، هل هذا الطابع الملصق على المظروف الذي بيدك ، طابع انجليزي ؟ »

اجابه كمال : « ولكن ما فائدة البقاء في هذا الشغل بعد الآن ؟ فلعلك توافقني على انه من العبث الانتظار حتى يؤول اليّ العمل كله »

— «قد يكون» . ثم عاد يلحف في الطلب قائلاً : «ارني المظروف الذي بيدك لالقي نظرة اخرى على طابعه »

— «لك ما تريد . فهذا مكتوب قد تسلمته اليوم ، وهو مرسل اليّ من قريبي شاكر بطرس ، الذي لا اظن انك التقيت به قط . فهو الآن في انجلترا لاتمام دراسته في الطب وسيعود الى مصر بعد عام او عامين»

— « أه ! اظن انك ذكرت لي اسمه يوماً ما . أليس هو ذلك الشاب الذي دعاك لتناول العشاء معه في فندق الكونتنتال ساڤوي في ذلك المساء ؟»

فقال كمال: «اي نعم، هو بالذات. انه اغرب شخص وقع عليه نظري. فهو الآن في انجلترا ينفق الاموال من جيبه الخاص لاتمام دراسة الطب، على امل انه متى عاد الى هذه البلاد، يفتح مستشفى خيرياً لمعالجة الفلاحين مجاناً. ليت شعري! ان لم يكن هذا العمل مضيعةً للحياة فلست أدري ماذا اسمّيه». ثم توقف كمال هنيهة عن الكلام، وعاد فقال: «ومع ذلك فليس من حقي ان أشدّد النكير عليه في اللوم والانتقاد، لانني مدين له بهذه الوظيفة التي أنا فيها الآن»

— «يالك من شخص كتوم! فلماذا لم تحدثني يا كمال عن هذا من قبل؟»

— «وهل فاتني حقاً ان احدثك عن هذا الامر؟ لقد كنتُ وقتئذ في مأزق حرج. لكنه كلف نفسه مشقة المجيء الى هنا والتحدث ملياً مع رئيسي، ولولا مسعاه الجميل، ما كنت أدري في أي حال أكون الآن»

فقال مصطفى: «أكرم به من شاب نبيل. ان المرء ليفخر بأن له قريباً كريم العنصر كهذا»

— «انه نبيل حقاً. ويمكنك ان تتحقق ذلك بنوع خاص، متى علمت انه اقرضني من تلقاء نفسه مبلغاً من المال، كي أعيش على الانفاق منه حتى اقبض اول مرتّب لي»

كان لهذا الخبر وقع غريب على مسمع مصطفى، فقال بين مصدق ومكذب. «... وهل فعل ذلك حقاً؟ لا بد ان يكون شاباً نبيلا بالحق»

اجابه كمال: «اصارحك القول انني حتى الآن لم استطع ان اسبر له غوراً لانني لا اقدر ان اعرف سبباً معقولاً لاهتمامه بامري الى هذا الحد. وكل ما

أعلمه انني للآن لم اعمل معه معروفاً يُذكر، لكنه من تلقاء نفسه تطوع لمساعدتي في مناسبات كثيرة».

فقال مصطفى: «انه لتصرف عجيب! وفي اعتقادي انه لا بد له من غرض يرمي اليه من وراء هذا التصرف العجيب»

صمت كمال هنيهة ثم قال: «يلوح لي ان الحل الوحيد لهذا اللغز، هو ان شاكراً يريد ان يستميلني الى المسيحية، افهمت هذا يا مصطفى؟ لقد اعتنقت عائلته الديانة المسيحية منذ اجيال. وقد بانت لي منه هذه النية منذ مدة ليست بقصيرة»

فسأله مصطفى: «وهل تحدَّث اليك قط في هذه المسألة؟»

— «لا اذكر انه كلمني عنها بطريق مباشر. والشيء الوحيد الذي اذكره في هذا الباب، هو انه اهداني مرة نسخة من الانجيل، محاولاً ان يحملني على قراءته. وقد اتضح لي مراراً ان بينه وبين رئيسي شبه تآمر عليَّ في هذا الامر»

فقال مصطفى ضاحكاً: «ولكنك يا كمال لست من الضعف بحيث يسهل التأثير عليك في هذا الباب. فاذا كانا حقاً يسعيان لاقتناصك فلا بدَّ من ان يكون الفشل حليفهما. ولكن مما لا يُنكر ان لهؤلاء القوم تأثيراً خطيراً على الناس. أذكر عزيز محمود الاسيوطي، فقلما وقع نظرك على شخص اكثر منه تديناً، فقد كان يبغض المسيحيين بغضاً تاماً، وعمل ما لا يُعمل في افساد مساعيهم، اذ تعود ان يجلس هو وآخرون في النادي ليحدثوا ضجة وشوشرة على اجتماعات المسيحيين هناك. ومن الغريب انهم فازوا عليه اخيراً، ولم

يكتفوا بان صيروه مسيحياً، بل جعلوا منه مبشراً. ولا ازيدك علماً بالتفصيلات فانت ادرى مني بهـذا الحادث. وقد فاتني حتى الآن ان اعرف السر في تأثيرهم على الناس. ويقول بعضهم في تعليل هذا السر انهم يستعملون التنويم المغنطيسي، وعن هـذا الامر تحدثت الجرائد مراراً وتكراراً، فهل سمعت بهذا؟»

اجاب كمال: «نعم، سمعت به»

فقال له مصطفى محذراً وعلى فمه ابتسامة ذات معان: «وعليك ان تتسلح بالحذر ايها الصديق لئلا تقع في الشراك، لانك اذا صرت مبشراً، فانك لا تستطيع ان تشاطرنا بعض الحيل التي نلجأ اليها في تصرفاتنا، فكن عنيداً ولا تستسلم»

— «لا تخف عليّ يا مصطفى. ولكن أمامي امراً يستحق الاعتبار: وهو انني ما دمت في هذا العمل وانا غير مسيحي، فان رئيسي يحول دون تقدمي وارتقائي»

— «اذاً الامر كذلك! هيا بنا الى عملنا. فقد حان الوقت الذي نجتمع فيه برفاقنا لاننا اتفقنا على أن نلتئم معاً في تمام الساعة السابعة»

فالقى كمال بدفاتر الحساب في درج المكتب، واغلق عليها بسرعة مدهشة، وبعـد ان اطفأ الانوار وأوصد الباب، خرج كلاهما يهرولان في الشارع بخطوات عاجلة. وفي اثناء سيرهما خطر لبـال مصطفى خاطر فجائي، فاسرع بالافضاء به الى كمال:

— «تأمل يا صديقي. اني اراك تجيد التمثيل، فلماذا لا تمثل لنا دوراً؟

فما عليك الا ان تدرس شيئاً عن المسيحية ، وان تتظاهر بميلك الى اعتناقها ، ولا شك انك بهذا تحوز رضى رئيسك بدرجة فائقة »

— «هذه فكرة لا بأس بها يا مصطفى ، ولكن المسألة لا تستحق المجهود العنيف الذي يُنفق في سبيلها »

— «انا لا اوصيك بان تتوغل في المسألة حتى يصل بك الامر الى العماد بل ان تظل معلقاً آمال الرجل فيك حتى يرقيك ، وهو مؤمِّلٌ ان يحملك في النهاية على قبولك المعمودية

* * *

في دار كائنة بشارع النواب، وفي احدى غرفها العلوية، جلس جماعة من «اخوان الصفاء» تحت جنح الخفاء . وكان احدهم في العقد الرابع من عمره ، فجلس مخاطباً اخوانه الذين كانوا جالسين حوله في شكل نصف دائرة على كراسي منبطحة ، وكان يبدو على ذلك الرجل — من نغمة كلامه ، ومن مظهره وهندامه — انه متصدر الزعامة بين اخوانه ، واذا به يقول :

— «علينا ان نكون واثقين مبدئياً من ان النجاح سيكون حليفنا ، فان اختبارنا في الاسكندرية كان مشجعاً جداً ، اذ لبَّى الناس نداءنا بغير تردد . لان ملاجىء الايتام تمس وتراً حساساً في قلوب الناس . وانما علينا ان نقسم البلاد الى مناطق ، وان ندرس طبائع زعماء كل منطقه ، فنكون مسلمين للمسلمين، واقباطاً للاقباط،وانجيليين للانجيليين وهكذا، فان لهذه الخطة اهمية تُذكر في حملتنا . وليس من داع للتعجل أيها الاخوان لان امراً كهذا يستحق التفكير ملياً، لذلك ينبغي ان نقتصر في اجتماعاتنا الاولى على التحضير

والاستعداد ليدرس كل منا الدور الذي عليه بكل دقة وعناية . وقد شاركني احمد افندي في حملةٍ قمنا بها اخيراً في الاسكندرية ، فصار كل منا صالحاً لتدبير الخطط والقاء التعليمات»

فسأله احد الاخوان ، وكان منتحياً مكاناً في احدى الزوايا :

—«وفي اي وقت من النهار نطوف لجمع الاموال ؟ »

اجابه الزعيم : « ان انسب فرصة هي بين الخامسة والثامنة مساء . لان الاختبار علمنا ان هذه الفرصة تجود باطيب الثمرات . وعلى اي حال ، فكلنا منهمك في شغله الخاص ، فلا نستطيع ان نتفرغ لهـذا العمل قبل الساعة الخامسة »

فسأله كمال: « وهل نقسم انفسنا الى فريقين ، ام نذهب كلنا كتلة واحدة ؟ »

« نذهب كتلةً واحدة بغير نزاع ، لاننا بهذا نكتسب مظهراً يؤثر على اعصاب الناس ، ولكن ليس من المنتظر ان نذهب كلنا دفعة واحدة ، فربما لا يتاح الا لأربعة منا نحن الخمسة ان يجتمعوا معاً في كل مساء . على انه لا ينبغي ان يقل عدد المجتمعين منا في المرة الواحدة عن ثلاثة»

فقال صديق كمال : «وما العمل اذا أصرَّ احد الناس على ان يرى الملجأ بعيني رأسه . فماذا يكون جوابنا اذ ذاك» ؟

—«ليس لنا الاَّ جواب واحد ! من المحتم علينا ان نكون على اهبة الاستعداد لأن نري المحل لكل من يريد . هـذا احد الاسباب التي تحملنا على ان نجتمع فقط عند نهاية النهار ، فلا يكون من الممكن في ذلك الوقت

المتأخر ان نطوف بالناس لنريهم الملجأ المزعوم ، وانما يتحتم علينا ان نضرب معهم موعداً في يوم آخر،وهنا يتسع امامنا المجال لاستعمال كل انواع «البلف» والخداع . ثم صمت الزعيم هنيهة ، وجال بنظره متفرساً في وجوه اخوانه ، منتظراً ان يبدي احدهم اشارة استحسان او كلمة ثناء على ذكائه ولباقته. واذ استشف كمال منه هذه الرغبة ، انتهز هذه الفرصة فقال : « وهكذا يكون الذكاء فاننا الى قطرة من حكمتك فقراء . فكلنا اطفال في مدرسة الدهاء »

— « عُلم لنا ونحن في الاسكندرية ان النذر اليسير من الناس هناك — واحد في المائة على الاكثر — يصرون على ان يروا المكان . وما من أحد في هذا النفر اليسير قد حافظ على الموعد الذي ضربه معنا . فلا خوف علينا في هـذا الباب » . وهنا أمسك الزعيم سيكارته ، وشرع يدخنها ثم طفق يقول :

— «وهنالك نقطة اخرى لا يمكننا ان نبت فيها الآن،وهي انه من المحتم علينا ان نعين مكاناً لملجأنا هـذا ، والاّ فالبوليس يتعقبنا ويداهمنا في ساعةٍ لا نظنها

وللخروج من هذا المأزق،اتفقت وصديق لي يقطن شارع عَشَرة بالعباسية على مقربة من قسم البوليس ، على ان يسمح لنا بان ندعي ان بيته هو الملجأ، مقابل قيمة زهيدة من المال يأخذها منا. فاذا فرضنا ان البوليس داهم منزله ، فانه يتجاهل كل شيء وفي الوقت نفسه يرسل الينا اشارة خفية ، وعندئذ نتدبر الامر . »

وقبل ان ينفرط نهائياً عقد «اخوان الصفاء» في ذلك المساء ، انصرف

كمال ومصطفى معاً ، وجلسا في احد المقاهي ليتذاكرا في الامر ملياً ، فاتفقت كلمتهما على انه اذا صادفهما نفس النجاح الذي صادف عصابة الاسكندرية ، فانهما يفوزان بمكسب يسد العجز الذي يشكوانه في مرتبيهما .

واذ همَّا بالانصراف ، قال مصطفى . « طبعاً ، فان ابرهيم زعيمنا رجل عظيم المراس . فمن الصعب التغلب عليه ، ولعلك لاحظت انه كان متخذاً الحيطة لنفسه طوال وقت تكلمه معنا . . . »

فقاطعه كمال بكل حماس وقال : «لقد صدقت في هذا . فقد استولى علي شيء من الاستياء عند ما سمعته في آخر الجلسة يطلب من كل واحد منا خمسة جنيهات ليحتفظ بها كتأمين تحت يده . فلا عجب اذا كان هذا الشرط لم يصادف قبولاً من الاخوان . وهل كان يعتقد حقاً ان مثل هذا الشرط الغريب يدخل في حيّز التنفيذ ؟ ؟»

— « لا مفر من تنفيذه . لان ابرهيم رجل لا يستهان به . وانا عن نفسي لا أمانع في دفع هذا المبلغ . فالامر يستحق هذه التضحية الزهيدة . وأكبر الظنّ أنني لهذا وُلِدت . والظاهر يا كمال ان هذا الأمر متغلغل في دم كل أفراد عائلتنا ! »

فسأله كمال : «وأي أمرٍ تقصد ؟ »

— «هل سمعت بالشيخ عزت السوداني ، ذلك النشال الفذ ، الذي كتبت عنه جريدة «لابورص» عموداً كاملاً منذ شهرين ؟ — ذلك الرجل الذي استطاع ان يجرّد سيدة مثرية من جميع حليها في رابعة النهار ، وعلى

مرأى من الكثيرين ؟ اني لا أبوح بسرّ اذا ما قلت لك ان اسمه الحقيقي غير ذلك . فهلاّ علمت انه من أقربائي ؟»

فقال كمال : «زدني عنه ايضاحاً فان أخباره تلذّ لي كثيراً»

فاستطرد مصطفى في القول: «سأحدّثك عما كتبته عنه الجرائد. وها أنا محتفظ بقصاصة مما كتبتْ عنه » . ثم أخرج قصاصة جريدةٍ من محفظته ، وأبرزها له — وكانت تلك القصاصة تقرب من نهرٍ كامل — ثم قال : «هل أقرأُها لك كما وردت باللغة الفرنسية ؟»

— «نعم . تفضل»

— «اسمع يا سيدي ! عنوان الحادث هو : «محتال فوق العادة . يحوّل السمّ الزعاف الى مشروب عذب.والأوراق البيضاء الى قراطيس مالية» — أما قوام الحادث فهو امرأة وطنية من حي الموسكي ، كانت قد ترملت منذ سنين، وورثت عن زوجها عمارات فخمة . وبالرغم من ثروتها ، التي تحسد عليها ، كانت تتحين كل فرصة لانماء ثروتها ، وتوسيع دائرة ممتلكاتها . ومنذ بضعة أسابيع هبط الى حيها رجل غريب الاطوار اسمه الشيخ عزت السوداني

ومن غريب أمره انه ما لبث في ذلك الحي أياماً معدودات ، حتى صار معروفاً لدى كل الجيران ، فكان الناس يتقولون عنه أقاويل شتى ، وظنه بعضهم انساناً ساحراً يأتي بالمعجزات . وكان هو في مقدمة مروّجي هذه الأقاويل عن نفسه ، بلسانه وتصرُّفاته . وكان يرتدي زياً سودانياً ، ويحمل معه على الدوام مسبحة طويلة،متمتماً باستمرار بكلمات أشبه الأشياء بالصلوات

والأوراد . و بكل سرعة فاز باعجاب جمهور البسطاء والدهماء ، الذين كانوا يتبركون بتقبيل يده ، ولثم اهداب ثيابه ، كلما لمحوه في الطريق

و بعد ان نجح في تكوين سمعة حسنة لنفسه ، ذهب ذات ليلة ، وقرع باب بيت تلك الأرملة ، معلناً اياها بنغمته السحرية المعهودة إنه يريد ان يأتي احدى معجزاته البينات — ابتداع أوراق مالية صحيحة ، لكنه يخشى أن يداهمه البوليس ، فرغب الى تلك الأرملة ان تكون حارسةً عليه فتنبّهه الى الخطر قبل وقوعه . وما كان من تلك الأرملة الا ان رحبت أيما ترحيب بفكرته هذه . وفي الصباح التالي ، أبرز لها الشيخ عزت السوداني حزمة من المركات الالمانية القديمة ، مؤكداً لها انه ابتدع هذه الأوراق المالية ابتداعاً من ورقٍ أبيض ليس الاّ . . .

فسألته الأرملة : «ولكن كيف أمكنك ان تأتي هذه المعجزة ؟»

أجابها : «هذا هو السر الموهوب لي يا سيدتي ، فهو قوة خارقة وُهِبْتُ إياها من الأعالي ، لا من هذا العالم . والشيء الوحيد الذي يحزنني ، هو انني وأنا الرجل العظيم الذي يستطيع ان يحوّل السم الزعاف الى شراب عذب ، لا أملك المجوهرات التي تساعدني على بلوغ غرضي»

— «ولِمَ ذلك ؟»

«المجوهرات يا سيدتي ، هي الاداة التي بها أستطيع ان أحوّل الورق الابيض الى أوراق مالية لا تحصى ولا تُقدَّر»

وهنا ترك الشيخ جارته المترملة ، غارقةً في بحر من الدهشة والانفعال . و بعد مضي بضعة أيام ، دعت الارملة جارها الساحر ليتناول طعام الغداء

عندها . ولكي تكسب رضاه ونعمته ، تفننت في ابتكار ما لذّ وطاب من الأطعمة والشراب، ولما جلس الشيخ عزت ليتناول الغذاء ، شرع يقص عليها قصصاً هي أبعد ما يكون عن التصديق . ولكن تلك الأرملة الغرَّة الجهولة صدَّقت كل شيء . فمن تلك القصص انه ذات مرة حوَّل الحصى الى باح رطب . ولما أخذت الحيرة منها كل مأخذ ، توسلت اليه ان يتفق واياها على أن يصنع بعض الاوراق المالية . وفي سبيل بلوغ هذا الغرض عرضت عليه ان يقبل حليَّها الذهبية . فتظاهر في بادئ الامر برفض هذا العرض لكنه قبل أخيراً ابتغاء مرضاة جارته — حسب ادّعائه

وفي اليوم الموعود جاء الشيخ الى بيت الأرملة ، ورغب اليها ان تخلي له غرفة في بيتها وان توصد جميع نوافذها . ثم طلب منها أن تستحضر له جانباً كبيراً من الورق الأبيض « وحلَّة » كبرى من النحاس مليئة بالماء . و بعد صلوات طويلة طرح الورق في الماء . وما كادت تنتهي هذه العملية حتى أخذ من السيدة أحد عشر زوجاً من الأساور الذهبية ودبوساً وخاتمين وقرطين — قيمتها جميعاً نحو سبعين جنيهاً — فلفها معاً في ورقة ورماها في الماء . ولما مضت السيدة الى المطبخ لتحضر غطاء «الحلة» اسرع الشيخ عزيز والتقط الحليّ من الماء وخبأها في جيبه ولما عادت السيدة بالغطاء أخذه منها ووضعه على «الحلة» ثم شرع يتلو أوراده وصلواته العديمة المعنى

ثم قال لها : « لا بد لي من الانصراف الآن . وسأعود غداً صباحاً وأستخرج الأوراق المالية من «الحلة» . وانما أوصيك وصية غالية ان لا ترفعي الغطاء عن «الحلة» لئلا يذهب كل ما في هذه «الطبخة» أدراج الرياح . وفي

الغد لم يحضر الشيخ عزت حسب الوعد ، ولا في اليوم الذي بعده ، مما جعل السيدة تستقصي أخباره، فاتضح لها انه توارى عن الانظار . فما كان منها الاّ ان عادت الى الغرفة ورفعت الغطاء عن «الحلة» فوجدت ان الورق قد استحال الى مادة لزجة بيضاء ، اما المجوهرات فلم تجد لها أثراً . وأخيراً تبين لها انها أضحت ضحية ذلك الوغد المحتال . فمضت وخبرت البوليس»

فقال كمال : «يا لها من قصة لذيذة حقاً . وهل لا يزال الرجل سائراً على هذا المنوال ؟»

— « نعم لا يزال سائراً على هـذا المنوال ، والنجاح حليفه ، فهو رجل رشيق لا يُشَقّ له غبار . ولقد قاسى البوليس الامرّين في القبض عليه ولـكن بغير جدوى»

— «لقد حان الآن مَوْعِدُ افتراقنا . وها انا امضي عنك لأركب ترام رقم ٣٣ ، فالى اللقاء »

— « الى اللقاء يا عزيزي »

في ذات ليلة أسرع مصطفى مهرولاً في حالة فزع واضطراب ، قاصداً المكتب الذي كان يشتغل فيه كمال ، لا لاجل مهمة الجمع ، لان الوقت كان سبتاً والنهار قد مال . وانما قصد اليه ليبلغه اخباراً غاية في الاهمية والخطورة . فلما اقترب من المكان لاحظ ان مكتب كمال — وقد كان في الدور الاول — لم يزل مُضاءاً . فتيقن ان كمالاً لم يزل موجوداً به . وانطلق ينهب درجات السلم نهباً متخطياً في كل مرة درجتين او ثلاث ، ولـكنه لدى وصوله الى اول «بسطة» راجع نفسه بغتة لانه لحظ في مدخل المكتب «بنكاً» خشبياً مثبّتاً

ورأى من خلفه حاجزاً من زجاج مشجَّر يحجب ما بقي من المكتب عن عيون المارة. فسمع مصطفى صوتَ صياح عنيف من وراء الحاجز الزجاجي يتصاعد من شخصين متشاجرين. فاستنتج مصطفى من نغمة الصوت ان كالاً هو احد هذين الشخصين. واستطاع ان يتبيَّن من موضوع الجدل الذي كان بينهما، ان ثانيهما هو صاحب المحل. فرأى مصطفى انه من المستحسن ان يظل صامتاً حيث هو، إذ يتاح له ان يتسمّع الى ما يجرى من غير ان يراه أحد. واذا به يسمع صاحب المحل يقول:

— «لو كانت هذه اول مرة لتسامحت معك ولكنه واضحٌ انك ارتكبت هذا مراراً»

فقال كمال .... «ولكني بريء. فانا أقرّ لك ان عدم اثباتي هذه الدفعة لم يأت الا عفواً وعرضاً»

فصاح به صاحب المحل: «اياك ان تردد هذا الكلام على مسمعي مرة اخرى. لا تقل «عرضاً» فاذا قلنا ان هذه المسألة قد حدثت عرضاً، فما قولك في تلك؟ وما قولك في الاخرى؟ قم الآن واطلعني على كل هذه الدفعات» وهنا خطا صاحب المحل بعض الخُطَى في غرفة المكتب فخاف مصطفى لئلا يهم الرجل بالخروج من المكتب، وينكشف موقفه، لذلك صمم على ان ينسحب وينزل عن درجات السلم بكل خفة

اما عن وقوع كمال في مأزق حرج، فحدِّث ولا حرج وربما ادت الحال الى فقدانه وظيفته. وعلى اي حال، فقد رأى مصطفى ان يؤجل الاخبار الهامة التي لديه الى فرصة اخرى. ومجمل هذه الاخبار ان البوليس الملكي كان يتعقب

ابرهيم وعصابته و يستقصي اثرهم حتى يعثر عليهم. فانتظر مصطفى خارج المكان الذي كان يشتغل فيه كمال، وما هي الا عشرون دقيقة حتى وافاه كمال مطأطأ الرأس . فتبادلا الحديث سوية واطلع احدهما الآخر على الاخبار المشئومة التي كان يخبئها بين ضلوعه ، واذ بلغا اول مقهى في طريقهما جلسا معاً ، فطفق كمال يقول :

—«هذا يوم أسود قاتم . فهو حقيق بأن نشرب فيه القهوة سادة» !

فوافقه مصطفى وقال : «اي نعم . يوم أسود من الزفت» !

الفصل الخامس

« تذكرة سفر بالدرجة الثانية الى الاسكندرية — من فضلك ! ! »

اجابه الصراف الجالس في مكتب صرف تذاكر الدرجة الثانية بمحطة العاصمة قائلاً : «هات تسعة وخمسين قرشاً ونصف قرش . يا سيدي ! »

فسلمه كمال ورقة مالية من فئة الجنيه ، وتناول منه التذكرة وما تبقى من الجنيه . ثم حمل حقيبته الصغيرة وقصد الى الرصيف رقم ١ . ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى كاد يصطدم في طريقه بشاب آخر كان مهرولاً الى « شباك التذاكر »

فقال كمال — «أهلاً نقولا . . لم يدر بخلدي ان التقي بك هنا »

« الى اين انت قاصد — الى الاسكندرية كالمعتاد ؟ »

— « اي نعم ، وكيف حالك يا كمال ، وهل انت أيضاً مسافر في هذا القطار ؟ استأذنك لحظة ريثما استحضر تذكرة سفر ثم اعود اليك» . قال هذا ثم أخذ مكانه بين جماعة المنتظرين على «شباك التذاكر »

و بعد ان جلسا سوية على مقعد مريح في احدى عربات الدرجة الثانية ، شرعا يتجاذبان اطراف الحديث ، و يتبادلان الاخبار . وما هي الا لحيظة حتى تحرك القطار متهادياً في حركته . وما كاد القطار يسرع في حركته حتى لمح احدُ الشبان ، نقولا مطلاً من نافذة العربة

فحياه مازحاً رافعاً يده الى جبهته : «وداعاً يا سي نقولا ، أمسافر انت مرة أخرى ؟ »

اجابه نقولا بعد ان ردّ التحية : «نعم انا مسافر يانعمان لمدة بضعة ايام»

— «وماذا جرى لسيارتك ، اهي في «الجراج» في هذه الايام ؟ »

— «لا عيب في السيارة، وانما أردتُ ان استقل القطار في هذه المرة»

— « والى اين انت مسافر — الى الاسكندرية كالمعتاد ؟ »

واذ همّ بتحية نقولا تحية الوداع : « مع السلامة » ، لمح كمالاً جالساً داخل العربة

فقال منفعلاً : «من انت يا هذا ؟ كمال ؟ ! ! اخرج من مكانك وأرني وجهك. لاني أريد مخاطبتك »

فسار كمال الى الامام ، وهو يقدم رجلاً و يؤخر أخرى ، متظاهراً بتعجبه مما شاهد وسمع . ثم استند بمرفقه على عتبة نافذة العربة . ولما بدأ القطار ينهب الارض نهباً اندفع صاحبه هذا مسرعاً في سيره على الرصيف بمحاذاة القطار ، موجهاً الخطاب الى كمال بلهجة حماسية ، متوعداً اياه باشارات تهديدية. اما نقولا فلم يستطع ان يفهم ما دار بينهما من حديث. ولكن بعد ان عاد كمال الى موضعه متكلفاً الابتسام ، ابتدره نقولا بالقول :

— «الظاهر ان امراً ذا بال يشغل فكر ذلك الرجل ، فما عسى ان يكون هذا الامر ؟ »

أجابه كمال وقد شرع في مطالعة جريدة كانت معه : «ليس الامر من الاهمية بمكان . فكل ما في المسألة ، انه واهم انني مدين له بشيء طفيف من المال. ولذلك فهو يصرّ على ان اجالسه مرة أخرى على المائدة الخضراء، ولكنه كلما قامر معي ازدادت خسارته ، وقد اضطرب فعلاً ، مذ علم بسفري الى

الاسكندرية ، لانه ظن انني مسافر اليها نهائياً ، فلا تُتاح له فرصة اللعب معي مرة أخرى . اما من جهتي ، فليس من شيء يمنعني عن ان العب معه ثانية ، سوى كونه مديناً لي بجانب غير يسير من الاموال التي كسبتها منه . وقد امتنع الى الآن عن دفع ما لي عليه من الدين ، لانه يؤمل ان يربح متى لعب معي مرة أخرى»

— «أي نعم . لقد فهمت حقيقة الامر . اما من جهتي فلو كنت في مكانك لرفضت ان العب معه حتى يسدد كل ديونه لي »

فردّ عليه كمال قائلاً : « بالتأكيد ، هذا ما قلته له بالضبط. فضلاً عن ذلك ، فانه لا يجيد اللعب . ومراراً يخطر ببالي وانا ألاعبه كانني اسلب منه شيئاً من المال . وفوق ذلك فهو لا يضبط نفسه متى انغلب . فذات مرة ثارت ثائرته عليّ ، لدرجة قام فيها لمبارزتي، مُدّعياً انني استعملت معه الغش ، بتمييزي اوراقي بعلامة خاصة ، فقلت له : « حسناً ، اذاً سلمني اوراقك لالعب بها . وهكذا فعلنا ، فكان الربح حليفي والخسران أليفه كالمعتاد »

فنصح له نقولا قائلاً : « اما انا فقد وضعت لنفسي قاعدة مؤتمنة اسير عليها . ويجمل بك ان تتبعها ، وهي : ان تلعب مع الشخص حتى تستنفد كل ما معه من مال ، كلما استطعت الى ذلك سبيلاً . ومتى تم لك ذلك ، كفّ عن اللعب ، ولا تفتح له باب الاستدانة منك بالتمادي معه في اللعب»

اجابه كمال : « ولكن الناس يلقبون من يفعل مثل هذا الفعل باشنع الالقاب »

فقال نقولا : «ما علينا من هذا، ما دمتَ قد استحوذت على كل ما معه من نقود ، فلا بأس عليك من ان تسمع نموذجاً من وقاحته »

فرد عليه كمال قائلاً :«ماذا بيدك؟ أهذه مجلة « كل شيء» ؟ ان كنت غير مشتغل بقراءتها ، فاسمح لي بلمحة القيها عليها »

بعد ان تصفَّحا كل ما كان معهما من الجرائد ، استعارا جريدتين اخريين من المسافرين معهما. ثم عادا يتجاذبان اطراف الحديث،الى ان قطعه عليهما قدوم مقامر لحوح

قال نقولا : « كيف حالك في عملك الجديد ؟ أمسرور به ، ام انت في شوق الى ان تعود لمشاكسة زميلك القديم جاد ابرهيم ؟ » وهنا ضحك نقولا، ثم استطرد في القول : «وكم من الوقت مضى عليك منذ تركك اياه ؟ »

اجابه كمال : « مضى عام بوجه التقريب . حقاً لقد مللْتُ كلَ ذلك ، ولم استفد شيئاً يذكر — لا مادياً ، ولا اختبارياً . ولقد صدقت فراستك يا نقولا اذ نصحتَ لي بأن اتخلى عن ذلك العمل »

— «سمعت ان خلافاً شجر في النهاية بينك و بين رئيسك، وقد اخفيت عني امر هذا الخلاف الى الآن »

فسأله كمال : «ولكن كيف علمت ذلك ، ومن أتى اليك بهذا الخبر » ؟

— « لم اسمع سوى انك لم تتركه الا بعد ان سلقته بكلمات حداد ؟»

اجابه كمال ، وقد علا محياه البشر ، حين علم ان نقولا لم يحط علماً بدقائق المسألة ، فقال : «بكل تأكيد . هذا ما فعلته معه . لاني اشتغلت عنده ردحاً من الزمن ، ولما جاء دوري في الترقية ، حرمني حقي فيها فلم اجد

مندوحة لي من تنفيذ تهديدي له بالخروج من محله » . وهنا حانت من كمال التفاتة الى شيء حوله ، ففاته ان يلحظ الابتسامة التي انطبعت على وجه نقولا الذي كان يعرف عن هذه المسألة اكثر مما ظن كمال

فقال نقولا : « يلوح لي انك عملت بنصيحتي باسرع مما ظننتُ . فلم يخطر لبالي انك تغير عملك بهذه السرعة » . قال نقولا هذه الكلمات ، وعلى شفتيه ابتسامة خفية ذات معان ، لم يستطع كمال ان يلحظها ، مستمسكاً بتجاهله دقائق هذه المسألة .

— « أخيراً سئمت هذه الحال ، وصممت على ترك العمل نهائياً . ولا اكتمك انني كنت اعتمد عليك في تنفيذ ما وعدتَ ، فتمهد لي سبيل الدخول في ذلك العمل الجديد . واني لمدين لك بكل ما قاسيت لأجلي من متاعب . فاذا نجحت في الحاقي بالعمل الجديد مع عبد المغيث ، فاني اكون اسير فضلك ما حييت » .

اجابه نقولا : « الظاهر انك راغب شديد الرغبة في هذا العمل . وانا من جانبي اصارحك بانني كنت ، منذ شهرين ، اتحين الفرصة المناسبة لاحدثك بافاضة عن عملك الجديد هذا ، ولكنني لم اوفق الى هذا حتى الآن . »

فقال كمال متحمساً : « حسن جداً . بقي عليَّ ان اخبرك انني موعود بان التحق بوظيفة في قسم المبيعات بعد فترة قليلة من الزمن . وهذا معناه زيادة في المرتب . »

فقاطعه نقولا صائحاً : «يلوح لي انك متقدم في عملك تقدماً لا بأس به»

قال كمال : «ومما يحببني في عملي الذي انا فيه ، انه يتيح لي فرصة السفر الى الاسكندرية او بورسيد ، بين حين وآخر ، لأتسلّم السيارات المرسلة الينا بحراً . هذا هو عملي في الحالة الراهنة . وها انا ذاهب الى الاسكندرية لاتسلم ثمان سيارات وصلت في هذه الرسالة الاخيرة . »

قال نقولا : «اي نعم فقد قدّرت لك ، انك ستفضل عملك هذا ، على عملك الماضي في تجارة الاسمنت . ولكن ما هي آخر اخبارك عن تلك المسألة المعهودة ؟ امتقدم انت فيها تقدماً يُذكر ؟ »

فسأله كمال ، متظاهراً بعدم فهمه القصد من السؤال — مع انه كان يدركه جيد الادراك — « ولكن ماذا تعني بهذا السؤال ؟ »

اجابه نقولا : « تلك الفتاة يا كمال ! هل فتحت باب الكلام بشأنها وطلبت يدها ؟ »

فجاوبه كمال : «للآن لم افتح باب الكلام في هذا الموضوع ، لان الوقت لم يحن بعد . ولا تزال المسألة مُبْتَسَرة . ولكنني اريد ان اخبرك ان رئيسي شغوف بي كل الشغف ، والظاهر انه معجب بي شديد الاعجاب . لانه رقاني مرتين الى الآن ، وفي المرة الثانية منها تخطيت موظفاً مضت عليه في وظيفته عشر سنوات من غير ان يفوز بترقية . وفي الواقع قد ركزت كل جهودي لاكون مقبولاً في عملي ، ووطنت النفس على ان اكون اميناً في البداية ، الى الوقت الذي احوز فيه مركزاً ممتازاً في عملي . وصدقني يا نقولا انه لن يمضي وقت طويل ، حتى افوز بمرغوبي من صاحب العمل فتصير ابنته لي زوجة » .

— « هكذا يكون الكلام والا فلا . فقط عليك ان تكون كثير التدقيق في سلوكك في البداية،ومن ثم يمكنك ان تعمل ما يحلو لك. وهنالك شيء آخر اريد ان الفت نظرك اليه ، وهو انه في مقدورك ان تكتسب رضى رئيسك ، اذا امكنك ان تكاشفه بالغلطات التي تلاحظها على بعض الموظفين . فمتى وفرت لرئيسك شيئاً من المال بهذه الوسيلة ، امكنك ان تفوز برضاه الى درجة تفوق حد الوصف والادراك . »

— «هذا ما كنت جاداً في عمله حتى الآن . فقد نجحت حتى اليوم في ايقاع كاتب قسم المبيعات في ورطة منذ بضعة ايام . لانه كان متعوداً على استقطاع مكسب خاص لنفسه من بيع بعض ادوات الاستهلاك . وقد اكتشفت ذلك بعد البحث والتحري . وفيما هو متلبس بجريمته ، امسكت بناصيته ، وسلمته الى رئيسي . ولديَّ ما يرجح خروجه من هذه الوظيفة التي ستكون من نصيبي بحكم الطبع . »

فقال نقولا : «لله درك يا كمال . ان اول خطوة امامك ، هي ألا تتوانى في استمالة رئيسك الى ان يعطيك ابنته زوجة لك كما سبقت فأسديت النصح اليك . ومتى نجحت في هذه الخطوة ، فان رئيسك لن يتردد في ان يجعلك له شريكاً

على هذا المنوال كان كمال ونقولا يتجاذبان اطراف الحديث ، بلذة وانشراح ، والقطار يقطع بهما المسافة من القاهرة الى الاسكندرية . ولما بلغ الحديث مداه ، شرعا يتسليان في مطالعة بعض الجرائد والمجلات ، التي كانت معهما وكانت تتخلل هذه المدة بعض فترات ينعقد فيها النوم على جفونهما .

ولما دنا القطار من الاسكندرية ، لاحظ كمال ان لوحة الاعلانات التي لمحاها على احد جانبي السكة الحديدية ، قد اختطفت بصر نقولا بشكل يسترعي الالتفات . اما الاعلان فكان خاصاً بشريط سينمائي سيُعرض في تلك الليلة في الاسكندرية

فقال نقولا لكمال وهما يجتازان سور المحطة : «من المستحسن ان نتناول العشاء سوية يا كمال في هذا المساء ، و بعدئذ نذهب معاً الى مسرح سبلندد . فقد اتصل بعلمي ان شريطاً سينمائياً ظريفاً سيعرض هناك في هذا المساء . »

اما كمال فقد وجد في نقولا رفيقاً تحلو معه العشرة ، فما وافت الساعة التاسة وربع مساء ، حتى كان كلاهما داخل مسرح سبلندد في المقاعد الوسطى ذات الاجور المعتدلة . وابتدأ استعراض الشريط في الوقت المعين بالضبط . وكان مطلع الشريط حافلاً باخبار مستقاة من كل اطراف المعمور . وتلا ذلك فصل هزلي لعبت فيه احدى سيارات فورد دوراً هاماً . وقبيل حلول فترة الاستراحة ، جاء دور ذلك الفصل الذي كان نقولا يتوقع مشاهدته بفارغ الصبر ، بسبب الاشارة التي قرأها عنه في لوحة الاعلانات في طريقه الى الاسكندرية . اما اسم ذلك الفصل فهو : «حِيَل المهرّبين» . وهو عبارة عن استعراض الطرق المختلفة التي يلجأ اليها مهربو المواد المخدرة ، والوسائل المتنوعة التي يستعملها البوليس في كشف حيل المهربين . ومن المشاهد التي تلذذ كمال بمرآها . مشهد تمثلت فيه احدى الحيل التي يلجأ اليها المهربون احياناً — استخدامهم قوارب الصيد لهذا الغرض في بعض موانى جزر بحر الجنوب . ولكي يفلت المهربون من التفتيش الدقيق الذي يقوم به رجال الجمرك البحري ، كانوا

يتفقون مع بعض البحارة المستوطنين في تلك الجزر ، على ان يقتربوا بقواربهم الى جانب السفينة ، متظاهرين انهم يطلبون صيداً — وفعلاً كانوا يطلبون — لكن صيداً من نوع آخر يختلف كثيراً عن صيد الاسماك — لان خيوط مصايدهم لم تكن منتهية بطعم لصيد الاسماك ، بل بصفائح مليئة بأصناف المخدرات ، التي كانوا يأخذونها من السفينة التجارية ثم يلقونها في البحر بعد ان يربطوها « بحبائل » صيدهم ، ومتى تحولت عنهم اعين الرقباء ، يرفعونها من البحر كما يرفع الصياد خيار صيده . وبعد هذا استعرض مشهد آخر ، استرعى انتباه نقولا بصورة مدهشة ، لدرجة انه كان جالساً على طرف كرسيه ، وممتداً برأسه الى الامام ، ولم يكن شغف كمال به اقل بكثير من لهفة نقولا . لانه كان يستعرض بعض الحيل التي يلجأ اليها المهربون في مصر ذاتها . من ذلك — منظر شهدا فيه بعض الفتيات اللواتي يستخدمهن المهربون على الشواطئ في تخبئة لفائف المخدرات حول أجسادهن ، فاكتشفت لفائف كبيرة مستورة حول سيقانهن . وهنالك مشهد كان موضوع تفكهة المشاهدين وتسليتهم ، وقد تمثَّلت فيه حيلة لجأ اليها المهربون في الصحاري المتاخمة لمصر . وكان الحديث بين أشخاص ذلك المشهد يدور باللغة العربية العاميَّة . وأهم ما في ذلك المشهد : قافلة من الجمال الغير المحملة ، تسير الهوينا في الصحراء ، واذا باحد موظفي الجمارك يستوقفها ، ويسأل حاديها عن غايته منها . فكان جواب حاديها : «أروم بيعها يا سيدي» . أجابه الموظف : «وبأي ثمن تبغي بيعها . فقد يكون في الامكان ان نشتريها نحن منك ، ونوفر عليك مشقة التنقل بها هنا وهنالك» . فكان جواب الحادي : «اطلب ثمناً للبعير الواحد

عشرين جنيهاً» . فادرك الموظف ان في الأمر سراً ، لانه يعلم ان العشرين جنيهاً ثمن باهظ. فقويت لديه الشبهة في أمر هذه الجمال . وهنا طلب من الرجل ان ينيخ الجمال . فصدع للأمر بغير تردد . ثم تقدم اثنان من رجال الضبط ، وشرعا في تفتيش الجمال ، ولشدة دهشتهم رأوا عجباً ، اذ اكتشفوا لفائف من الهروين مخبوءة تحت شعر اسنمة الجمال . لان المهربين كانوا يجزون شعر سنام البعير خصلاً كبيرة ، و بعد ان يلصقوا لفائف الهروين على جلد البعير مكان الشعر المجزوز، يعيدون خصل الشعر الى موضعها ، فتتغطى بها لفائف الهروين. فكان هـذا المشهد مثار ضحك المشـاهدين وموضوع تسليتهم . و بعد فترة الاسـتراحة ، عُرضت قطعة تمثيلية ، ولما لم يجد الشابان فيها لذة تذكر ، تركا المسرح قبل نهايتها

وفي عصاري اليوم التالي ، كانا كلاهما يسيران الهوينا ، وهما يستمتعان باشعة الشمس على «بلاج» ستانلي بك. و بما ان نقولا لم تكن لديه مهمة عاجلة شأن كمال أيضاً — لان «رسالة» السـيارات التي كان في انتظارها تأخرت يوماً عن موعدها الاصلي — استقر رأيهما على أن يستحما في البحر . ففعلا . و بعد ذلك ، استلقيا على الشاطىء . واذا بكمال يرفع رأسه ، متوكئاً على احدى ذراعيه ، و يخاطب زميله قائلاً :

« هل تستطيع ان تؤكد لي يا نقولا ان الغرض الوحيد من مجيئك الى الاسكندرية ، هو تجارة القطن ليس الاّ ؟ ليس هذا ميعاد موسم القطن. فهل لك اذاً ان تصارحني بقصدك الحقيقي في مجيئك الى هنا ؟»

— « كنت الى هذه اللحظة اتحيَّن الفرصة التي فيها افضي اليك بما في

طويّة نفسي . وكم هو مدهش حقاً ، انك فتحت باب الكلام معي في هـذا الأمر على هذه الصورة» . و بعد فترة سادفيها الصمت قال كمال لنقولا : «تفضل قل ما عندك» . فطفق نقولا يقول :—

— «هل تذكر ذلك المشهد الذي رأيته بالأمس في مسرح اسبلندد ؟»

أجابه كمال وقد علت وجهه الحيرة والارتباك: «نعم اذكره جيداً ، ولكن ماذا تعني بهذا ؟»

قال نقولا: «أتذكر جيداً ذلك المنظر، الذي رأيناه قبيل فترة الاستراحة، المتعلق بوسائل تهريب المخدرات ؟ فما فكرك في هذا ؟»

— «لست اعلم بالضبط ماذا أقول . ولكن الظاهر ان الذين اعدوا ذلك الشريط السينمائي ، لهم دراية بفنون التهريب»

فقال نقولا : «في الواقع يا كمال انهم لا يعلمون الا النذر اليسير من هذا الفن الواسع» . قال هذا ثم تطلع الى وجه كمال ليرى ما يبدو عليـه من ملامح ، علّه يستدل منها على اتجاه تأثره من هذا الكلام

اما كمال فلم يلفظ بينت شفة لكنه نظر الى نقولا نظرة تفيض بمعاني الدهشة ، وحب الاستطلاع ، كأنه يطلب منه اعادة ما قال ، أو ان يستزيده من المقال

فاسعفه نقولا بالقول : «قلت ان واضعي ذلك الشريط لا يعرفون الا النذر اليسير من فن التهريب »

أجابه كمال : «وهـل تعني بقولك هـذا ، انك تستطيع ان تلقنهم شيئاً جديداً في هذا الفن ؟»

قال نقولا : «ولم لا ؟» وهنا استوقف نفسه عن الكلام . ثم استأنف المقال : « وهلا علمت الآن اني مفكر في هذه اللحظة باشتغالك معي في هذه المهنة؟ اما نصيبك فيها فهو ان تأتي الى الاسكندرية بين حين وآخر — على أن تكون اقامتك في القاهرة . وأما من جهتي فاني اكون ملازماً للشغل هنا جلّ الوقت ، لاني لا استنسب نزولي الى القاهرة الاّ كل فرّ ومرّ . ونحن كما تعلم في مسيس الحاجة الى شخص نكل اليه أمر توزيع الغنائم في العاصمة»

فقال كمال وهو بين مصدّقٍ ومكذب : «اتعني بهذا انك تنتظر مني ان اكون ... »

فقاطعه نقولا : «نعم واسوأ من ذلك . فلا حاجة لي الى ان اعرفك ان هذه مسألة تدر علينا المال الجزيل ، بل تكاد تكون هي الحرفة الوحيدة التي يأتي من ورائها مكسب يُذكر في هذه الأيام ...»

فسأله كمال : «ولكن هل حسبت حساب المخاطر التي تحدق بنا ؟ أنا أعتقد انها مهنة محفوفة بمخاطر جمة في هذه الأيام ، سيما بعد ان تفتحت عيون رجال البوليس لمطاردة أرباب هذه المهنة في هذه الأيام الأخيرة»

أجابه نقولا : « لا شك يا صديقي في ان هذه المهنة محفوفة بمخاطر كثيرة. ولكن ألستَ مستعداً ان تواجه بعض هذه المخاطر ؟ على انني أؤكد لك ، انك اذا تذرعت بالحرص في كل خطوة من خطواتك ، باتخاذك التحوطات التي نتخذها نحن عادة، لوقيت نفسك كل مهاجمة تصوب اليك من البوليس — سواء أكان نظامياً أم ملكياً»

فقال كمال : زدني ايضاحاً عن عملكم هذا»

وفي هذه الآونة قام كلاهما ونزلا في البحر مرة أخرى، ثم خرجا ولبسا ملابسهما، وركبا الترام قاصدين الميناء. ولكنهما قطعا شوطاً بعيداً في هذا الحديث، فلم يكتف نقولا باقناع كمال بالانضمام الى عصابته، بل حمله على ان يرسم تفصيلات الخطط الجديدة، التي سيعملان معاً بموجبها في المستقبل. واذ وصلا الى محطة الرمل، انتقلا من الترام، وركبا احدى السيارات الكبيرة فوصلت بهما بعد عشر دقائق الى الميناء، مقابل مرسى مراكب «اللويد تريستينو». وكان نقولا في انتظار زميل له آتٍ على متن الباخرة «فكتوريا» التي كان وصولها منتظراً بعد نصف ساعة. فلم يجد ما يمنعه من ان يعرّف كمالاً بزميله الذي سوف يعمل معه في المستقبل يداً بيد. أما كمال فمن فرط ما أُخذ به، من كثرة المرغبات والمشوقات التي تنتظره في عمله الجديد، لم يفزع من المصاعب، ولم يرهب المتاعب، بل تحمس وتهيأ لمواجهتها، وأظهر استعداده التام للقيام بنصيبه في هذا المشروع الجديد. ولانه كان يثق بنقولا ثقة عمياء، ملكه الوهم من فرط ما أفضى به اليه نقولا من التصريحات. فاضحى واهماً انه صار موضوع ثقة نقولا. لكن بعضاً من الشك كان يخالجه بين حين وآخر، فيما اذا كان نقولا مخبئاً له شَركاً في بطن المستقبل، وذلك لكثرة ما وجد من خيانة بعض مَن تظاهروا بصداقته في الماضي. وبالرغم من ذلك، فان نفسه كانت تحدثه بأن نقولا يختلف عمن سبقوه، فلم يجد بداً من أن يثق به. وربما دفعه الى ذلك، اعتقاده بان نقولا أفاده كثيراً بنصائحه. وفوق ذلك، انه مدين له بمركزه الحالي، سيما وان نقولا لم يطلب من وراء خدمته هذه التي قام بها لكمال مغنماً مادياً

وفي الوقت المعين، ظهرت الباخرة المنتظرة، تتهادى على سطح البحر واشعة الشمس تنعكس على لونها الفضي الجميل، فتكسبه روعة و بهاءً. وما هي الا هنيهة، حتى وصلت بمقدمها الى الثغر. ولما دنت من الشاطئ، ظهر احد جانبيها. وفي هذه الاثناء استطاع نقولا ان يلحظ صديقه المنتظر، مرتكزاً على حاجز ظهر السفينة. فوجه نظر كمال اليه. أما هذا، فقد تحول نظره فجأة الى شاب طويل القامة، مرتد بذلة رصاصية اللون، مرتكزاً الى الحاجز عينه. اما هذا الشاب الثاني فهو قريبه شاكر بطرس افندي، الذي كان يحييه عن بعد، فقد رجع الآن الى مصر، مبكراً شهراً عن الموعد المضروب بينه و بين كمال

و بعد مضي ثلاث ساعات، كان كمال وقريبه شاكر يتمشيان معاً في المتنزَّه العام، بعد ان تعشيا معاً في احد المطاعم، في مكان طلق الهواء يشرف على البحر. وكان شاكر يحدث ضيفيه على العشاء عن رحلته في انجلترا، فاسترعى حديثه التفاتهما لدرجة ان نقولا نفسه قد انجذبت اليه، واستعذب حوادثه الطريفة

كانت تلك ليلة بهجة بكل معنى الكلمة، فكانت قبة الفضاء المتلألئة بنجومها الدرية، منطبعة على جبين مياه البحر الزرقاء، والنسيم العليل يهب من جهة الميناء. أما الثريات المتألقة في طرقات المتنزَّه، فكانت والقبة الزرقاء المشرفة عليها، كعقد من الماس يحيط به المخمل القاتم. وكانت الأمواج تتكسر على سور المتنزَّه، فتنتثر رشاتها عند قدميه

واذ بلغا طرف المتنزَّه من جهة المشرق، تملَّيا برؤية الثغر المتلألئة أنواره البهية، مؤلفة هالة من الضوء، قال شاكر لقريبه: —

— «هلم بنا يا كمال نجلس سوية في هـذا المتنزَّه، لنستريح قليلاً قبل ان نغادر هذا المكان الجميل»

فجلسا معاً، واستطرد شاكر في القول:

— «اني أراني يا صـديقي في موقف دقيق ازاءك، وأكره ما عليّ ان أفاتحك ثانية في هذا الموضوع الخاص وانا آمل انك لا تحسبني ملحاً اذا أنا فاتحتك فيه الآن. فكيف يمكنني ان أواجه الخواجا جاد ابرهيم، والحساب معه لم يَسوَّ بعد؟ انا لا أخالك الا مصراً على القول بانك بريء من الاختلاس براءة الذئب من دم ابن يعقوب — وكم أرجو من كل قلبي ان تكون كذلك — ولكن ما لم نسوِّ المسألة تسوية جدية، فـ...»

فقاطعه كمال، وفي صوته رنة غضب وحنق قائلاً: «كم وددتُ لو صرفتَ هذه المسألة من ذهنك. فهذه مسألة قد مضت وانقضت. أَوَلا تظن اني اكون أجهل مخلوق في الأرض ان انا ذهبت الى الخواجا جاد ورددت له المال الآن؟» ثم استدرك نفسه مخافة ان يكون قد اندفع في القول بغير قصد وقال: «وفوق ذلك. فليس في ذمتي شيء له»

فقال شاكر: «ولكنك اذا تهرَّبت من دفع هذا المبلغ، فلا مندوحة لي من أن أدفعه من جيبي الخاص. لاني أُعزّ صداقتي له، وأربأ بها من ان يضعفها شيء كهذا»

وهكذا طال بهـما الحديث، وقطعا فيه شوطاً بعيداً. وكلما امتد بهـما

المقال، كان كمال يزداد هياجاً وتحمساً، وأحياناً يخرج عن طور التعقل والرزانة. لكن شاكر بطرس كان يزداد من جانبه رزانة وتعقلاً، ومحياه يفيض بالبشر. والصفح والمسالمة. وبعد مضي نحو نصف ساعة لانت حدة كمال، وهدأت تأثرته، من فرط ما اظهره شاكر نحوه من العطف، والمجاملة، والروّية. وهنا اتجه كمال الى قريبه وقال بلهجة جدية:

— «هلاّ علمت يا قريبي، انك لغزٌ لم أوَفّق الى حله الى الآن؟. اني أرى فيك شخصاً يختلف كل الاختلاف عن سائر الناس. ولهذا السبب عينه، كثيراً ما كنت اتحاشى مخالطتك. فكل وقت اتفق لي ان رأيتك فيه، أو تسلمت منك مكتوباً، كنت أجد فيك شيئاً خفياً يؤنبني ويخجلني امامك. واني اعترف لك انني عاجز عن ان اعبر عما يختلج في نفسي من جهتك ولكن يظهر لي انك عائش فوق المستوى الذي يعيش فيه عامة الناس. وكثيراً ما كنت أعجب لذلك وأحاول ان اكشف له سراً. وأعترف لك اني عجزت حتى الآن. فهل لك ان تهديني اليه»

فاجابه شاكر بطرس: «يا كمال انك بكلامك هذا تخجل تواضعي. ولكني أصارحك اني كنت منذ مدة أتحين الفرصة لأفضي اليك بما عندي، وها أنا مسرور لأن هذه الفرصة قد أتيحت لي الآن، لأبوح لك بما في صدري — لا لأبشرك — فلا تخف!!»

«تسألني يا عزيزي عن سرّ حياتي — فها أنا ابذل قصارى جهدي لأكشف لك هذا السر، مع ان هذا ليس عليَّ من الهنات الهينات»

«انني وان كنت لا أدري حقيقة نظرتك الينا نحن المسيحيين، ولكنني

لا شك قط في أن لديك فكرة خاطئة عن المسيحية، بسبب ما تلاحظه على بعض المسيحيين بالاسم. ولا مشاحة في أن كثيرين من هؤلاء لا يعرفون شيئاً عن معنى الديانة التي ينتحلونها، ولا يدرون شيئاً عن قوة المسيح في حياتهم . . . » . ثم صمت شاكر هنيهة ليعطي كمال مجالاً يبدي فيه ما عنده فقال هذا بدوره :

— ما معنى قولك: «قوة المسيح في حياتهم» ؟ كنت أحسب ان ديانتكم لا تختلف كثيراً عن ديانتنا، وانها عبارة عن بعض تصوّرات تحوم حول شخص المسيح، وتقوم ببعض ممارسات وفرائض، كتلك التي تسمونها «معمودية» وما اليها. ألستم تعمدون أولادكم بعد ميلادهم ببضعة أيام ؟ ألستم بهذه العملية تصيرونهم مسيحيين ؟ وعلاوة على فريضة المعمودية، عندكم فريضة أخرى اسمها «الاشتراك» أو «المناولة» . وأنا اعترف اني لا أدري عنها الشيء الكثير، لكن أليس الايمان بثلاثة آلهة من أهم أركان ديانتكم ؟ ومع اني أعلم انه توجد بعض الفروق بين ديانتكم وديانتنا، ولكن أليس أهمها، انكم تعبدون المسيح كنبيّ، مقابل اتباعنا نحن النبي محمد ؟ وسواء اكانت فكرتي هذه عن المسيحية صائبة ام خاطئة، فهي على كل حال خلاصة ما اتصل به علمي عن ديانتكم حتى الآن»

أجابه قريبه شاكر: «ليس من المستحسن ان نستهل حديثنا بالبحث في الفروق التي بين عقائدكم وعقائدنا. أنا لا أقول هذا استخفافاً مني بقيمة العقائد، ولكن لأني أعتقد ان هنالك ما هو أجلّ منها خطراً وابعد أثراً. واني أصارحك القول يا عزيزي، ان المسيحية ليست مجرد عقيدة، وانما هي قوة

وحياة . وهذه الحياة لا يستطيع الانسان ان يحياها من تلقاء نفسه ، ولا بمجرد جهوده الخاصة ، لأننا عبثاً نحاول أن نتغلب على نقائصنا ، وشهواتنا ، وميولنا ، فهي في النهاية تسود علينا. ولذلك اعتقد اننا في مسيس الحاجة الى قوة علوية تملأنا ، وتنصرنا على كل الشرور الكامنة فينا . ألا توافقني على هذا ؟»

فسأله كمال : «وهل تقول ان هذه القوة تأتينا من الله ؟»

— «نعم» !

— «ولكن ما هو السبيل الى الحصول عليها؟ وكيف يودعها الله في القلب ؟ »

أجابه شاكر : «بواسطة المسيح يا صديقي . هذا هو بيت القصيد»

فقال كمال وفي صوته رنة الظفر : «ولكنكم أنتم معشر المسيحيين، تقولون ان المسيح مات على الصليب . فهل في استطاعته والحالة هذه ، ان يستمد لكم هذه القوة من الله ؟»

فقال شاكر: «ولكنه قام من الأموات بعد ان صلب . والتقى بتلاميذه بعد قيامته ، وقال لهم : «دُفع اليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» — لاحظ أنه قال هذا القول وهو على الارض — «وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر» . هذا يا كمال هو سر الحياة الغالبة»

— «الحياة الغالبة» ! وماذا تعني بهذه العبارة؟ ألا يكفي لذلك ان أتلو صلواتي ، وأردد أورادي، وأقدم صدقاتي ؟ فماذا ينتظر الله مني فوق ذلك ؟ »

— « يا عزيزي كمال . لا يجمل بك أن تتكلم هكذا . فلعلك تعلم ان مجرد القيام بالفرائض الدينية الخارجية ، لا يغني فتيلاً . وليس في الدنيا عقل

راجح يقبل هذا . بل اننا لو تأملنا لحظة في حياتنا ، لانتهينا الى هذه النتيجة: وهي انه من المحال علينا ان نعمل الصلاح امام الله، وان خطايانا أوفر من أن تُعدّ ، وان السر في الانتصار والظفر ، ليس ناجماً عن مجرد غفران آثامنا ، لكنه كامن في تلك القوة التي تأتينا من الاعالي يوماً فيوماً ، لنستطيع أن نحيا بها وفق ارادة الله من جهتنا . أتوافقني على هذا ؟»

— «أي نعم . ان ما تقوله ، يستحق التفكير العميق ، والاهتمام الجدي. فلقد أحسست مراراً في اعماق نفسي ، بحاجتي الى من يقويني ويعضدني . ولكن ألم يحن موعد انصرافنا من هنا . هيا بنا ! فقد أرخى الليل سدوله ، وانا مرتبط بموعد سابق مع صديق لي،في الساعة العاشرة والنصف. فلننصرف الآن ونتحدث عن هذه المسائل في فرصة أخرى»

ولما كان شاكر يعلم حق العلم من هو الشخص الذي سيكون مفسدةً لقريبه بملازمته اياه ملازمة الظل ، انتهز فرصة سيرهما في طريقهما الى المدينة وعمل كل ما في وسعه لكي يمنع قريبه من التمادي في هذه المصادقة الخطرة ، وان يقلع عنها جهد المستطاع

واذ بلغا في مسيرهما ميدان محمد علي ، حيّا أحدهما الآخر تحية الوداع ، ثم قال له كمال : «ولكن لا بد لي من أن ألتقي به الليلة. وفوق ذلك فاني لا استنسب ان اتركه على هذه الصورة، وهو معلق آماله فيّ. و بما انني اخشى ألاّ أفوز بلقياك قبل مضي وقت غير قصير ، لذلك استودعك السلامة ، متمنياً لك سفراً سعيداً الى القاهرة» . ثم تبادلا تحيات الوداع

وفيما كان كمال يجتاز الطرقات المؤدية الى ميدان رأس التين ، لم يتمالك

نفسه من ان يستعيد الى ذاكرته ما حدث بينه و بين قريبه في تلك الليلة الليلاء . وكانت نفسه تحدثه قائلة : «ان في شاكر شيئاً يميزه عن سائر الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين . وانه لواضح ان ديانته هي السر في كل هذا . أهذه هي المسيحية ؟ واذا كانت مسيحيته كذلك ، فما أصعب اعتناق مبادئها والسير بموجبها ! لأنها تمس حياة الانسان في كل جانب من جوانبها . وما هو السبيل الى بلوغ مثلها الأعلى ؟ حقاً ان الله يطالب الانسان المسيحي ، بما يفوق طاقة البشر ! و بما ان شاكر عازم على ان يدفع قيمة عظمى من المال الى الخواجا جاد ابرهيم عوضاً عني ، فلا شك في ان المسيحية ديانة تكلف اتباعها تضحيات جليلة ، وتوصيهم بحياة ملؤها الامانة ، والشرف ، والتضحية ، والوفاء»

ولم يصرف كمال عن تأملاته هذه ، سوى وصوله الى مقهى كبير . فارتقى فوق درجات السلم الرحبة المزينة باصص الريحان والزهور ، حتى بلغ السطح الذي كان شبيهاً ببستان معلّق . وهناك انتحى ناحية مع نقولا وزميله ، مكوناً معهما تحالفاً ثلاثياً

الفصل السادس

في احدى ليالي الربيع ، كان النسيم العليل يهبّ على المروج الخضراء الممتدة الى الشمال الى مسافة بعيدة يرتد عنها البصر وهو حسير ، ومنها يدخل الى البيت الخلوي الجميل الذي كانت تقيم فيه مدام شاكر ، فيملأ أرجاءه . وكانت ربة الدار جالسة آنئذ في احدى شرفاته ، مستمتعة بذلك النسيم المنعش الصافي ، مأخوذة بجلال ألوان الغروب البديعة ، التي طبعتها الشمس بليقتها الذهبية على جبين السحب ، وهي تتوارى خلف أفق الغروب . وكان الأفق البعيد موشى باشعة أنوار المدينة الزاهية

غير ان مدام شاكر لم تجلس في شرفة بيتها لمجرد الاستمتاع بجمال الطبيعة لكنها كانت متوقعة سمع صوت بوق تلك السيارة التي كانت ترقب قدومها على الطريق الكائن بين بينها و بين مدينة دمنهور . لان زوجها كان قد ذهب الى القاهرة منذ يومين ، على رجاء ان يعود بين الساعة السادسة والسابعة في ذلك المساء

وكانت فرصة جدّ موحشة ، تلك التي قضتها الزوجة في الانتظار والمراقبة ومع ان زوجها كان وشيك المجيء في تلك الساعة ، الا انها كانت تحصي الساعات التي مرت بها مذ ان حيّت زوجها تحية الوداع في صبيحة اليوم السابق فكانت دقيقتها شهراً وساعتها دهراً

كانت اثناء جلوسها تلمح عدة سيارات تتئد في مسيرها لدى بلوغها منعطف الشارع ، ثم تعود فتنطلق بغاية السرعة مستأنفة مسيرها . ولأول وهلة

كانت مدام شاكر تحكم، من انوار السيارة الامامية ومن صوت محركها، انها ليست سيارة زوجها. لان هذه كانت من طراز كرسلر، ذي الثلاثة المقاعد. وفوق ذلك، فان زوجها كان قد عودها على ان ينفخ بوق سيارته ثلاث مرات متوالية لدى وصوله الى ذلك المنعطف

و بعد هنيهة رقص قلبها طرباً، حالما سمعت صوت بوق سيارة قرينها. و بين طرفة عين وانتباهتها، وصل زوجها، فتبادلا معاً تحيات اللقاء بعد فترة الغياب. ثم قال شاكر:

« ها قد رجعتُ الآن بحمد الله، بعد ان تمتعت برحلة موفقة لذيذة. فكيف قضّيت هذه الفترة يا عزيزتي؟»

أجابته: «لو لا الوحشة التي عانيتها في غيابك، لكنت في حالة سعيدة حقاً»

— «وكيف حال وحيدتنا لورا؟ عساها ان تكون سعيدة أيضاً؟»

— «انها لملَك صغير. فقد تمتعت بالنوم الهنيء معظم الوقت. وفي اوقات يقظتها كانت تلعب وتمرح، وهي باسمة ناعمة البال»

— «شيء جميل. فهي طفلة تُحَب كثيراً». ثم قال بلهفة: «ألا يمكنني ان أملّي ناظريّ بها الآن ولو الى لحظة؟»

— «بكل تأكيد يا عزيزي. ولكن بكل هدوء لئلا تزعجها في نومها»

فتقدم الوالد الفخور الى غرفة ابنته، وفتح الباب بكل خفة ورشاقة، ودخل غرفتها ماشياً على طرفي قدميه. و بعد ان تملّى برؤية وجهها الملائكي الوضيّ، خرج وجلس مقابل زوجته حول مائدة العشاء

و بعد صلاة الشكر على المائدة قالت الزوجة

«قل لي يا عزيزي ، هل سررتَ برحلتك أمساً الى القاهرة ؟»

— «كانت رحلة لا بأس بها يا عزيزتي . فقد وصلت الى القاهرة بغاية السرعة ، لان السكة معبدة جيداً ، لو لا الطريق المتعب الممتد بين قليوب والقاهرة ، ولكن سيارتي لم تكثرت لهذه الصعوبة ، لانها — كما تعلمين — من طراز كرسلر، فهي تهزأ بكل عقبة في الطريق . ولكن في رجوعي من القاهرة، لم تسعفني السيارة كما في ذهابي اليها. والظاهر ان خللاً طرأ على محركها وعند عودتي رأيت بخاراً يتصاعد من مخزن البنزين ، مما دلني على حدوث احتكاك كثير في عِددها. وهذه ثالث مرة لاحظت فيها هذا الخلل . وفي مدة الستة الاشهر الفائتة قد انفقنا في سبيل اصلاحها مالاً غير يسير. ولست أدري ما اذا كنا نبقيها ونستمر في الانفاق عليها ، أم نبدلها بخير منها»

— «لا تنس انك اشتريتها منذ مدة ليست بقصيرة — وانها كانت وقتئذ مستعملة . فلا بأس من ابدالها بخير منها، ما دمت ترى انها غير صالحة للاستعمال»

— «سأعمل على ابدالها بخير منها بأول فرصة ممكنة . فلنرجع الآن الى حديثنا . قد سررتُ من زيارتي للقاهرة في هذه المرة ، لانني التقيت فيها بكل من كنت أسعى للقياهم . وفوق ذلك ، فقد اهتديت الى بعض المستحضرات الطبية الحديثة ، اللازمة لي في مداواة مرضاي»

— «هل احضرت شيئاً للورا كما قلت ؟»

— «في الواقع لم اشترِ لها شيئاً هذه المرة يا عزيزتي. ولكنني تغديت مرة

في منزل عمي حنا وعمتي بهية. وبعد الغداء سلماني هدية جميلة لوحيدتنا لورا . فقبلت هديتهما «شاكراً». وهي عَجلة ملونة تحدث صوتاً موسيقياً كلما دارت . ولا شك في أن لورا ، سوف تطرب لها ، وتلهو بها كثيراً»

وهكذا تجاذب الزوجان أطراف الحديث ، وملاك الهناء يخيم عليهما ، وعصافير النعيم تغرِّد لهما ، والزوج يقص على شريكة حياته ما حدث له في القاهرة من كل طارف وتليد ، والزوجة تستمع له بشغف شديد

وبعد العشاء، قام كلاهما الى شرفة المنزل ، ليستمتعا بالنسيم العليل. وكان القمر ليلتئذ ، في تمامه بدراً كاملاً، وكانت أشعة أنواره منعكسة على مياه النهر الممتد امامه ، فتتلألأ بجمال بديع دونه جمال الفضة البهية الصافية

وبعد ان وقفا معاً بضع دقائق في صمت وخشوع ، يسرّحان الطرف تارة في جمال البدر وهو يتهادى في كبد السماء ، وطوراً في جمال الحقول التي خلع عليها القمر حلة فضية ، جلسا معاً واستأنفا الحديث على الصورة الآتية

قال شاكر برقة وعذوبة : «ألا تعتقدين معي ان الله غمرنا بنعم جليلة في هذه الايام ؟»

أجابته زوجته: «بكل تأكيد يا عزيزي . وهل لي ان أسألك عن النعمة التي تجول في مخيلتك بنوع خاص في هذه الآونة ؟ اما من جهتي فاني اعتقد اننا مدينون لله باشياء كثيرة»

— «بكل تأكيد ، . إنني متفكر بنوع خاص في هذه الطفلة المحبوبة، النائمة الآن في سريرها كملاك طهور»

— يا لها من هبة عظمى . انها لطفلة تُحبّ حقاً . أوَليس الله كريماً اذ

أودعنا اياها، ملقياً علينا مسئولية تربيتها وتهذيبها مدة حياتنا وحياتها. وأكبر الظن ان هذه المسئولية، جدّ خطيرة»

اجابها الوالد الفخور: «انه امتياز ومسئولية في آن واحد. وأراني طول الوقت مفكراً في أمر مستقبلها، وعلينا ألاّ نترك وراءنا جهداً في اعطائها افضل قسط من التربية والتهذيب»

— «هل عندك فكرة خاصة عن المدرسة التي نرسلها اليها بعد ان تكبر قليلاً؟ ان مجرد تفكيري في امكانية افتراقها عنا، يملأ قلبي ألماً منذ الآن. ولا شك اننا سنواجه هذه المسألة بعد وقت ليس ببعيد!!»

— بكل يقين ولكنني واثق اننا لا نجد صعوبة تذكر في مواجهة هذه المسألة، متى جاء أوانها. فمدارس البنات الراقية صارت منتشرة في كل مكان، وفيها يتعلم البنات أحسن تعليم عقلي، ويحصلن على أفضل قسط من التهذيب الخلقي. وانني كلما تأملت في الشوط البعيد الراقي الذي قطعه التهذيب في عصرنا الحاضر، امتلأت نفسي فخراً واعجاباً واطمئناناً»

قالت هي: «أي نعم. سيما تهذيب البنات»

فاستطرد هو في القول: «بكل تحقيق، فاني اعلم، انه منذ سنين قليلة لم تكن مدارس البنات في حيّز يُذكر في الوجود. ولكننا أصبحنا الآن، ومدارس جديدة للبنات تشيد في كل عام، وهنا لك ما هو أفضل من ذلك ان البنات يسبقن الأولاد، ويتفوّقن عليهم في مضمار الامتحانات الحكومية العامة. ألم تقرأي نتائج الامتحانات في أول يوليو الماضي؟»

— «نعم اذكر ذلك» — ثم قالت وفي فمها ابتسامة: «والسبب في ذلك

يا شاكر، ان البنات اكثر اجتهاداً في الدرس من الاولاد» — ثم تحولت ابتسامتها الى ضحكٍ، وهي تقول: «والعلة الاساسية، انهن اكثر أمانة من الأولاد في المطالعة»

— «الحق معك يا عزيزتي، الحق معك». وبعد فترة ساد فيها الصمت مدة بضع دقائق، قال: «غالباً سنعاني ألماً يُذكر متى جاء أوان افتراقها عنا، في طلب الدرس والتحصيل»

اجابته هي متمتمة: «نعم لا شك في هذا». وبعد فترة صمت عميق، رفعت ماري نظرها الى زوجها، فرأت عليه علائم الاهتمام والتفكير، ثم قالت له: «يلوح لي ان شيئاً ذا بال يشغل فكرك في هذه الآونة»

— «نعم ان أمراً مهماً يجيش في صدري ولا بد لي من ان أبوح به لك. وهذا الشيء يقلق بالي منذ مدة ليست بقصيرة. وقد اتصل بي اليوم وأنا في مصر خبر بسَط على ذهني سحابة كثيفة من الهم»

فسألته بلهفة: «وما هذا الذي سمعت؟ عسى ان لا يكون هذا الخبر متعلقاً بصحة والدك»

— «ليس لهذا الخبر صلة بصحة والدي. ولعلك تذكرين انني رددت على سمعك مراراً، اسم قريبي كمال. وقد علمت اليوم ان خلافاً ذا بال شجر بينه وبين زوجته، لدرجة فيها هددَته بمفارقته»

— «وهل وصلت المسألة الى هذا الحد؟ كنت أعلم ان مسألتهما دقيقة على نوع ما، لكنني ما حسبت قط، انها تبلغ هذا الدور من الخطورة»

— «تعلمين ياعزيزتي انني على الدوام أظهرت كل اهتمام بأمره، فهو شاب

ظريف من وجوه عدة ، لكن عيبه أن أصدقاء السوء احرقوه في نارهم فتوغل في الشر من رديء الى أردأ ، وهو يعالج الداء بالداء . ومن بين الاشياء التي تورط فيها ، اشتغاله بالمخدرات»

— «لا . لا . أرجو ألا يكون هذا صحيحاً . هل بلغت المسألة هذا الحد ؟»

— «كنت متوقعاً هذه النتيجة ، مذ علمت باتصاله بذلك الشاب المسمّى نقولا . لانني ظللت مدة طويلة وأنا مشتبه في غدواته وروحاته ، ولكنني الآن قد أيقنت الحقيقة . وفي امكاني ان أفضح أمره لو أردت . ولكن الشيء الوحيد الذي يجعلني اتردد في هذا ، هو خوفي من ان نقولا ، متى هوى الى الحضيض يكتسح كالاً قدامه»

قالت هي موافقة : «أي نعم ، هذه هي الصعوبة . ولكن ما هي الأخبار التي بلغتك عن نقولا ؟»

— «للآن لم أسمع عنه شيئاً معيناً بالذات ، وانما أستطيع ان استدل عن حقيقة أمره بالقرائن . ومنذ نحو أسبوعين رغبت في ان أخاطب تلفونياً مع جمال افندي صاحب الاجزخانة الكبرى الكائنة في قلب المدينة ، وهو لسوء الحظ يشتغل بتجارة المخدرات . واذ رفعت سمّاعة التليفون الى أذني لأطلب نمرة الأجزخانة ، تصادف ان الخطوط التلفونية كانت متماسّة ، فأتيح لي أن أسمع جمال — وقد تبينت صوته جيداً — يتحدث الى شخص ظهر لي فيما بعد انه نقولا . وبما ان هذا الاسم ليس شائعاً كثيراً ، فقد استنتجت انه هو نقولا بالذات . ومن المحادثة القصيرة التي جرت بينهما ، فهمت ان نقولا سيؤجل

وصوله الى دمنهور مدة يومين . فقال له جمال لا داعي لتعجيلك العودة ، فان حاجتي الى هذا الامر ليست عاجلة . وهكذا ظهر لي ان نقولا لديه شيء يريد ان «يصرّفه» عند جمال. بعد هذا وضعت السماعة في مكانها. فاي شيء يريد نقولا ان يرسله الى جمال سوى المخدرات ؟ ومما يؤيد اقتناعي هذا ، ان نقولا يشتغل رسمياً في تجارة القطن الخام . وبالطبع لا يصلح هذا الصنف اداة للتعامل بينه وبين جمال الصيدلي . طبعاً لم يتجرأ أحدهما ان يذكر في المحادثة التلفونية ما هو الصنف الذي يتعاملان به ، لان هذا الامر من الخطورة بمكان عظيم . ولكنني مقتنع تمام الاقتناع ، بأن هـذا الشخص الذي كان يتخاطب مع جمال هو نقولا بالذات ، وانهما يتعاملان معاً بمواد محرَّمة شرعاً»

« لا شك عندي ، ان كمالاً شاب كثير المطامع ، وهو يتوق كثيراً الى تمكين نفوذه و بسط جاهه كما انه شديد الوَلَع بحبّ المال . وهو نظير كثيرين غيره مستعد ان يضحي بأعز ما لديه — حتى بنفسه — في سبيل حصوله على صفقة رابحة . وقد اتفق لي ان اتصلت به مراراً في نواحٍ عدة. وفي ذات يوم تيقنت انني استطعت ان أطبع على نفسه تأثيراً خاصاً . ذلك اننا منـذ عامين تقريباً، كنا سوية في الاسكندرية، فلمحته مصادفةً يوم رجوعي من أوروبا، وكان وقتئذ في صحبة نقولا . وكلاهما كان في انتظار قدوم احد أصدقاء نقولا، في نفس الباخرة التي اقلّتني. وبعد ان تعشى ثلاثتنا معاً، انتحيت بكمال ناحية منفردة وتجاذبنا معاً أطراف الحديث مدة طويلة ، ظهر لي في خلالها انه صار شديد الميل الى المبادىء المسيحية، وأسَرَّ اليَّ انه ينوي ان يعيش عيشة جديدة أفضل حالاً من عيشته السابقة ، واعترف انه عاجز عن ان يتم مقصده هذا

بمحض قوته الذاتية . وقد أثّر فيّ اقراره هذا ، لدرجة شعرت فيها انه من الواجب علي ألا أترك هذه الفرصة السانحة تُفلت من بين يدي ، من غير ان أوقفه على حقيقة المطالب التي ينتظرها المسيح منا ، والقوة التي جعلها في متناول كل منا . فأحسست كأنه دنا من نقطة الفصل ، ولكنني أخشى ان يكون قد ارتدّ الآن في عزيمته ، لانه — كما يلوح لي — عاقد النية على مصاحبة نقولا ، ويمكنني ان اؤكد لك الآن ان نقولا كان وقتئذ محاولاً ان يستدرجه الى هذه التجارة المحرمة،الو بيلة العاقبة. وانا آسف انني لم استطع ان أتحقق ذلك في حينه ، والا بذلت قصارى جهدي في انقاذه من براثن نقولا. وعلى كلٍّ ، فقد أخلصت له النصح، ورغبت اليه ان لا يتمادى في عشرة ذلك الفتى الغر»

فقاطعته زوجته قائلة:«يلوح لي انه منحدر بكل سرعة الى مهاوي الخطر والهلاك . ولا بد من ان يُمسَك يوماً متلبساً بجريمته — ان عاجلاً أو آجلا . وهذه ستكون اكبر نقيصة ترمَى بها عائلتنا»

قال شاكر : «أما من جهتي ، فلا أبالي كثيراً بهذه الناحية ، لان قرابتنا ليست معروفة الا في دائرة ضيقة جداً — لحسن الحظ. فضلاً عن ذلك، فان هذه المسألة ستكون خارجة عنا فلا تصيب عائلتنا بسوء، لانها واقعة بعيداً عن محيط عائلتنا المسيحية. ولكن ليس هذا بالامر المهم الذي أخشاه ، وانما أنا اخشى وقوع عواقب اعمق أثراً ، واكبر خطراً ، نتيجة مطامعه الاشعبية . فقد كان يشغل وظيفة كاتب في احد محال السيارات ، وكان مدير المحل مخدوعاً به في بادىء الامر. ويحق لي ان استنتج ذلك ، لان كمالاً شاب ذو

شخصية معنوية جذابة . وهو الى ذلك جميل الطلعة ، حسن البزّة محبَّب الى معارفه ، واذ آنس منه رئيسه طموحاً الى الرقي والتقدم ، وكل اليه قسم المبيعات ، على سبيل التجربة والاختبار . فصادف نجاحاً عظيماً ، مما جعله موضوع تقدير رئيسه واعجابه . وما هي الا فترة وجيزة حتى صار هذا الاعجاب صداقة متينة ، وما كان اسرع كمال في استغلاله هذه الصداقة ، فصار يكثر من التردد على بيت رئيسه . وبعد شهور قليلة طلب يد ابنته الثانية . ومن العجب العجاب ان اعجاب رئيسه به بلغ حداً فائقاً لدرجة انه تغاضى عن الاصول المرعية وزوَّجه من ابنته الثانية متخطياً أختها الكبرى . ولما كان ذلك الرئيس يعلم ان كمالاً لم يكن مدّخراً شيئاً من المال لينظم به حياته العائلية الجديدة وفق المستوى الراقي الذي رفعته اليه زوجته ، اغدق عليه مالاً وفيراً وقام باعداد كل ما يلزمه في بيته الجديد»

قالت مدام شاكر : «أرى ان ذلك الرئيس ، بتصرفه هذا ، قد أساء الى صهره من حيث اراد له الاحسان ، اذ جعل منه شاباً مدللاً لا يعجبه العجب . ولا يعرف معنى للرضى والشكران»

— «بكل يقين . والنتيجة الطبعية كانت كما تتوقعين . فالظاهر ان كمالاً استغلَّ هذه المعاملة السخية . فصوَّر له الوهم ، ان رئيسه أضحى في قبضة يده ، لذلك طلب منه ترقية أخرى في محله . واذ حصل على مبتغاه ، اشتعلت في صدره نيران المطامع الى وظيفة أرقى ، فأرقى . وفي النهاية ، ضاق الرجل به ذرعاً ، فلم يعد يتحمل منه هذا الدلال . أما كمال فلم يتراجع عن موقفه وطغيانه ، فما كان من رئيسه في آخر الأمر الا ان وضع نفسه بين يديه ،

وأقامه وكيلاً متصرفاً في كل شيء، كما هي حاله اليوم. وقد اتصل بعلمي مؤخراً، انه يطالب رئيسه بنصيب أوفر في الارباح، مما أدى الى نزاع بينهما. اما كمال فلم يتراجع عن تهديده رئيسه بترك العمل ما لم يفز بكل مبتغاه

امور يضحك الجهلاء منها ويبكي من عواقبها الحكيم

وقد كان من المنتظر، ان السيد عبد المغيث، ينتهز هذه الفرصة فيتخلص من هذا الشريك المزعج. ولكن أنى له ذلك! أتعلمين لماذا؟ ان رئيسه يخشى بأسه، مخافة ان ينتقم منه في ابنته، فيعاملها شرَّ معاملة، وفي اعتقادي انه محقٌّ فيما يخشاه»

— «قد يكون. ويا ترى! هل يعيش كمال وزوجته عيشة راضية في الوقت الحاضر؟»

— «كلاَّ. يؤلمني ان أقول: انهما لم يتذوَّقا قط طعم السعادة العائلية. وماذا يُرجى غير هذا، من زواج غير مؤسس على المحبة؟ ان زواجهما لم يُبنَ على الوفاق، بل على المطامع الاشعبية — وكم لأمثال هذا الزواج من ضحايا في هذا البلد! ومما يثير الاشجان، انهما رُزقا ابنة — فكان مولدها سبباً في اضافة آلام جديدة على أمها التعيسة. لان كمالاً صار يعامل زوجته معاملة وحشية لانها ولدت له بنتاً لا ولداً. ولا يدري غير علاَّم الغيوب ماذا يكون مصير هذه العائلة المنكوبة»

— «ألم تذهب في هذه المرة لزيارته، يا عزيزي؟»

— «كلا. فان ضيق وقتي حال دون هذه الزيارة. وفوق ذلك، فاني لم أستنسب زيارته في الوقت الحاضر، لاني أعلم انه على رغم شعوره بمعايبه، رجلٌ

صفيق الوجه ، يريد ان يظهر دائماً بمظهر المحقّ في كل ما يعمل . فان أنا فاتحته الآن في شيء ، فلا شك انه يصبُّ عليَّ جامات غضبه . فكم انا آسف ، ان اكون عاجزاً عن القيام له بخدمةٍ تذكر في هذا الباب »

— «ولكن لا يفوتنا يا شاكر ان نخدمه خدمة واحدة على الاقل»

— « وما هي هذه الخدمة ، يا عزيزتي ؟ »

— « ان نصلي لأجله »

— « أي نعم . فهذا ما كنت منشغلاً به منذ بضع سنين »

في هذه اللحظة ، سُمع صوت صياح طفلتهما الصغيرة ، منبعثاً من الداخل

— « أه . لقد استيقظت لورا من نومها . ها قد حان موعد اطعامها . فلا بد لي من اسعافها »

فأسرعت الامُّ الى حيث كانت ابنتها . و بعد دقائق قليلة ، عادت بها ، وقد ارتسمت على محياها الصغير علائم البشر والارتياح . وفيما كانت الطفلة جادة في تناول طعامها ، كان الأب والأم يتبادلان نظرات الرضى والشكران على هذه الطفلة الملائكية التي أفاضت على جوانب بيتهما اسباب الغبطة ، والهناء ، والحبور

الفصل السابع

نزل الدكتور شاكر بطرس من السيارة في أقرب موقف يؤدي الى شارع قصر النيل ، ولم تكن السيارة قد وقفت تماماً في مسيرها. وكان الدكتور مرتبطاً بموعدٍ سابق مع صديق يقطن على مقربةٍ من هذا المكان . ولكن كان بينه و بين هذا الموعد متسع من الوقت يقرب من عشرين دقيقة . ففكر في أن يقضي هذه الفترة الباقية في السؤال عن ابن عمه كمال ، معتقداً ان كمالاً موجود في مكتبه في ساعة الغروب هذه ، التي يتجمع فيها عادة في محل مبيع السيارات، جمهور من «العملاء». واذ دنا الدكتور من ذلك المحل، استطاع ان يلمح كمالاً بكل وضوح من خلال الباب الزجاجي ، متحدثاً مع رجل أنيق الملبس . فدخل من الباب العمومي ، وجلس على كرسي فخم في وسط المكان ، منتظراً حتى يفرغ كمال من عملائه ، مسلياً نفسه بتقليب صفحات مجلة مصورة عن التنزه بالسيارات في سويسرا . كل هذا وكمال لم يتنبه لوجوده بعد

وفيما هو كذلك، اذا بكمال يخاطب احد عملائه قائلا : «هذا آخر طراز ، وقد وصل الينا منذ أيام قليلة . فلم ننزع عنه غلاف التصدير سوى أمس . وقد مضى علينا الآن اكثر من ثلاثة أعوام ونحن نتجر بهذا الصنف من السيارات و يسرك ان تعلم ان مبيعاتنا منه بلغت درجة قُصْوَى بغاية السرعة . وها انا ذاهب الى الاسكندرية بعد أسبوع ، لأشرف بنفسي على انزال رسالة اخرى الى البر ، تحتوي على اكثر من عشر سيارات . وأنت ترى ان مخزننا هذا

لا يتسع لهذا المقدار الكبير، فاضطررنا الى استئجار مخزن في جهة أخرى من المدينة. ومع أن هذا التدبير يكلفنا كثيراً، الا أننا نجني من ورائه ربحاً جزيلاً، لأن الطلبات على سياراتنا منهالة علينا بكثرة، ولا بأس من أن نتحمل بعض النفقات الاضافية في سبيل تلبية هذه الطلبات»

اما شاكر فقد كان يتسلى بتقليب صفحات المجلة المصورة متسائلاً في نفسه عن مبلغ نصيب هذا الكلام من الصحة

فقال العميل لكمال: «أحقاً أنت في انتظار وصول عربة «كوبيه» بعد أيام قليلة!؟»

أجابه كمال: «نعم. توجد عربتان من طراز «كوبيه» في هذه «الرسالة» وهما من طراز مشهور حقاً. وعلى العموم، فان هذه العربة التي امامك، ذات البابين والاربعة المقاعد، هي الصنف المطلوب اكثر من غيره في هذه الأيام وانا اقرر لك، ان ثلاثة اشخاص يفكرون في الوقت الحاضر في شرائها. وان واحداً منهم عقد العزم فعلاً على اقتنائها ولم يبق أمامه سوى اقناع زوجته بان هذه السيارة من أحسن طراز، وان لونها يوافق ذوقها. ثم عقّب على ذلك بالقول: «وأنا أخشى اذا بيعت هذه السيارة، فقد لا تحصل أنت على مثيلتها في وقت قريب»

— «ولكن ألا توجد عربات من هذا الطراز في «الرسالة» القادمة؟»

— «لا شيء منها بالمرة!»

— «أمر عجيب! وما السر في ذلك؟»

اجابه كمال: «ليس الأمر عجيباً بهذا القدر الذي تظن. لأن الطلبات

كثيرة جداً على هذا الصنف ، لدرجة ان الوارد منه ليس بكافٍ لتغطية كل الطلبات»

«وها امامنا مكتوب من مدير مصنع هذه السيارات في ألمانيا يفيد انه ليس في امكانهم تلبية كل طلباتنا ، الا بعد مرور شهر على الأقل»

وفي هذه المرة أيضاً كان شاكر يتساءل في نفسه عما اذا كان هذا الكلام صحيحاً ، أو ان جزءاً كبيراً منه ليس له نصيب من الصحة على الاطلاق

فقال العميل لكمال : «هل لك ان تمدّني بمعلومات وافية ، عن طراز آخر ؟»

أجابه كمال : «سمعاً وطاعة . فان لدينا هنا قائمة مصوَّرة لما تريد» . قال هذا وأدار وجهه تجاه الطاولة ، فلمح لأول مرّة قريبه شاكراً جالساً يتسلى بقراءة احدى المجلات

واذ همّ شاكر بالوقوف لتحيته ، تقدم هو نحوه متلطفاً ، وقال : «أهلاً شاكر ! كيف حالك ؟ مضى علينا وقت طويل مذ التقينا آخر مرة . عساك الآن بخير» . فتصافحا وتبادلا معاً تحيات الشوق ، والمودة ، والمجاملة

ثم قال شاكر : «أشكرك . فأنا بخير وسلام . وكيف حالك أنت وآل بيتك ؟»

أجاب كمال لاهياً : «الحمد لله» . ثم عاد فالتفت الى العميل» وقال متفاخراً «أقدم اليك قريبي الدكتور شاكر افندي بطرس» ثم نظر الى قريبه وقال : «اقدم اليك مستر جبسون»

وبعد أن فرغا من التحيات ، استأذن كمال قريبه شاكراً في أن يمهله بعض

الوقت حتى يفرغ من طلبات العميل . وبعد بضع دقائق اقنع عميله الانجليزي هذا بأن يخرج معه في السيارة على سبيل اختبارها

فقال شاكر : «انا آسف لانني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من دقائق معدودات . فأنا مرتبط بموعد حان أوانه ، ولكنني عرجت عليك لأقرئك السلام»

فرد عليه كمال قائلاً : «فضل عظيم منك ان تكلف نفسك مشقة المجيء اليّ والسؤال عني . وكم يؤسفني حقاً أن تغادرني بهذه السرعة . ولكن ألا يمكنك ان تتنازل بأن تشرب قدحاً من القهوة معي ؟»

— «أنا آسف حقاً ، لانني لا استطيع البقاء اكثر من ذلك . وها أنا أقدّم اليك مقالة في جريدة «البورص» علك تجد لذة في تلاوتها ، لأنها خاصة بعملك وهي تبحث في تعاقد تجاري تمّ بين مصر والمانيا ، ويلوح لي انها ذات فائدة لك»

قال كمال : « شيء جميل » . ثم تناول الجريدة من يد قريبه . وقال : «أشكرك . سأقرأها في أول فرصة» . وبعد هنيهة ألقى بالصحيفة جانباً ثم قال :

«هل اتصل بعلمك ما حدث أمس مساءً ؟»

— «كلا . نبئني ماذا حدث ؟»

— « اقصد خطبتي لثريّا عبد المغيث»

— «أحدث هذا حقاً ؟ . ليس لدي أي علم به فهو خبر مفاجيء لي . أهنئك»

— «لم يكن في امكاني ان أحيطك علماً بهذا الخبر قبل اليوم . لان الاتفاق لم يتم بيني وبين والدها الا منذ أيام قليلة» . أما شاكر فلم يكن لديه بد من الاعتقاد ، بأن هذا الكلام ليس سوى نموذج لكلام كمال المعتاد ، الذي لا نصيب له من الصحة على الاطلاق . ومع ذلك فقد قال له والبشر يطفح على محياه : «يسرني ان اسمع بهذا الخبر . فأنا أتمنى أن تكون ممسكاً بناصية السعادة والهناء . ويؤسفني ان أكون مضطراً الى مغادرتك الآن . ولكن هل لك ان تعرفني عن موعد الزواج ، اذا كنتم قد اتفقتم عليه ؟»

أجابه كمال : «غالباً بعد ثلاثة أشهر»

قال شاكر وقد همّ بالقيام ليمضي الى حال سبيله «شيء جميل» . وفيما هو سائر في طريقه ، كان يفكر في المجاملة الغير المعتادة التي استقبله بها كمال في هذه المرّة . فقد يكون السر فيها ، ان كمالاً نشوان بفرح خطبته التي ستكلل عما قريب بالزواج ! لكن شاكراً كان يعتقد انه لا بد في الأمر من سر أعمق من هذا . فمن المحتمل ، ان نظرة كمال اليه قد تغيرت ، وان تحامله عليه بسبب عقيدته الدينية ، قد خفت وطأته ، ولانت حدته . ويجوز ان يكون هذا نتيجة قراءته الانجيل الذي أهداه اياه ، ولو انهما لم يتحادثا عن مطالعة الانجيل . ومع ان خطبة كمال ، لم تكن وفق مرام شاكر ، الا انها كانت سبباً في ادخال السرور الى نفسه . لأنه يعلم ان خطيبة كمال تلقت علومها في احدى المدارس المسيحية ، اذ قضت هنالك بضعة أعوام

وما كاد شاكر يغادر مكتب كمال ، حتى تقدم احد الشبان الى كمال واحتل الكرسي الذي كان شاكر جالساً عليه . ومع ان ساعة الانصراف لم

تكن قد حانت بعد، الا ان كمالاً لبس طربوشه وخرج مع ذلك الشاب تنفيذاً لاتفاق سابق بينهما. فركبا معاً سيارة كانت في انتظارهما على مقربة من مكتب كمال، مخترقين شوارع المدينة التي كانت مزدحمة آنئذٍ، ميممين قصر النيل. واذا بلغا الشارع المتسع الذي يشرف عليه فندق سيراميس، قابلهما ثلاثة شبان كانوا في سيارة أخرى، منتظرين قدومهما

فأقبلوا على كمال مهنئين اياه على خطبته. وبهذه المناسبة البهيجة، اجتمع شملهم ليزفوا الى صديقهم أبهج التهاني. وبأسرع من لمح البصر استأجروا «فلوكة»، لان الشمس كانت قد غربت وبدأ الليل يرخي سدوله، والقمر لا يطلع ليلتئذ الا بعد حين

قضوا نحو ساعة ونصف متنزهين في النيل بين كوبري اسماعيل والجزيرة والروضة. وشربوا كأس الغبطة والانشراح حتى آخر قطرة. فكانت تتجاوب اصداء قهقهتهم فوق تموجات مياه النيل. وابعدوا عن افكارهم كل أمر جدي لينصرفوا بكلياتهم وجزئياتهم الى وقت لهوهم ومجونهم. وبعد ان طافوا حول ذلك الخليج المائي ثلاث مرات طلبوا الى النوتي أن يرسو بهم عند «كوبري الانجليز». ومن هنالك وصلوا الى تلك الحانة الكبيرة المشرفة على ضفاف النيل، المعروفة بـ «بار اسماعيل»، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ثم جلسوا للسمر والتسلية. فتجاذبوا أطراف الحديث في موضوعات منوعة. وتناقشوا في المكوس الجمركية الحديثة، وتدرجوا من هذا الموضوع الى التحدث عن الامتيازات الاجنبية فحمي وطيس جدلهم في هذا

الموضوع الحساس. ومنه توغلوا في الكلام عن الوزراء وبعض رجال الدولة البارزين فسلقوهم بألسنة حداد

وبطريقة ما، انتقل بهم الحديث الى التكلم في الدين، فأدى بهم الامر الى المقارنة بين الاسلام والمسيحية. والشيء الذي استرعى التفات كمال بنوع خاص، ان جل رفاقه يعرفون الشيء الكثير عن المسيحية وتعاليمها ومبادئها. واتفق ان أحدهم كان قد تلقى العلم في احدى مدارس الفرير. فساقه حب الاستطلاع الى قراءة الانجيل، وأعمال الرسل، وبعض الرسائل

فبدر من أحدهم — واسمه صبحي — هـذا السؤال: «ماذا تظنون في الانجيل؟»

أجابه آخر: «هذا سؤال خطير. أما من جهتي فقد وجدت في الانجيل أشياء لم يكن لي بها علمٌ من قبل. وقد وجدت أشياء أخرى كثيرة، لم استطع الى فهمها سبيلاً. فمن ذلك، اني لا أفهم لِمَ لم يجمع المسيح كل اتباعه، ويؤلف منهم جيشاً للذود عن مبادئه، بالقوة والسلاح. فقد أتيحت له فرصة نادرة حين اكتسب اعجاب الجماهير فأرادوا أن يجعلوه ملكاً. وفي نظري ان تلك كانت فرصة نادرة ليبسط فيها نفوذه وينشر تعاليمه ويشتت شمل اعدائه من الكتبة والفريسيين. لكنه على الضد من ذلك ترك هـذه الفرصـة تذهب سدًى، وفيما بعد أسلم نفسه الى أيدي أعدائه، فأمسكوا به واقتادوه الى الصلب. ويلوح لي انه كان غير مبال بنجاح قضيته

فانضم اليه آخر وقال: «وهذا ما يتراءى لي أنا أيضاً. ولكني أظن انك

اندفعت في قولك « ان المسيح صُلب بالفعل . فهل تقصد ما قلت ؟ ألا تعلم ما يحدثنا عنه القرآن الشريف في هذا الامر ؟»

أجاب صبحي : «بلى . أنا عالم يا علي ما يقوله القرآن في هذا الشأن . ولكني أميل الى تصديق ما قاله الانجيل في المسيح انه صلب ومات بالفعل . ويظهر لي ان المسيح لم يُرضِ الله ، في أواخر حياته . فقد كان من الواجب عليه أن يحارب ويجاهد في سبيل ديانته . وبما أنه لم يفعل هذا ، لذلك تخلى عنه الله . ألا تذكر أنه قال ، وهو على الصليب «إلهي إلهي لماذا تركتني؟؟»

ثم قال آخر مبتسماً : « يا لك من رجل عصري العقيدة يا صبحي . اني أرى فيك رجلاً لا يجل القرآن الشريف كما ينبغي»

وقال مصطفى مرعداً ، مبرقاً : «يا للعار ! ! »

وقال علي : «اسمعوا لقولي واصغوا لنصحي»: لست أرى ان رواية البشائر واجبة التصديق ، ولا هي حقيقة به . لان لكلٍ من الاربع بشائر ، كاتباً خاصاً . وقد اختلف هؤلاء الاربعة الكتاب في روايتهم . أما القرآن الشريف فهو كتاب واحد ، خالٍ من بلبلة الافكار والآراء هذه

قطع هؤلاء الرفاق في حديثهم شوطاً بعيداً . أما كمال فلم يشترك معهم فيه حتى الآن. لكنه قرر في نفسه ، ان يكون له فيه نصيب يذكر منذ الآن ففتح فاه وقال :

« اني استميح عفوكم الكريم ايها الاخوان ، في ان اتلو عليكم فقرة من رسالة تسلمتها منذ بضعة ايام . وقد كنت اظن انني لم احضرها معي اليوم . ولكن ها هي معي . وهي تتناول بعض الموضوعات التي جرّنا اليها

البحث في هذه الآونة . وكنت قد قرأتُها قبلاً بغاية العجلة فلا اذكر تماماً ما جاء بها . وسوف لا اقرأها لكم كلها ، ولكني ساجتزئ بفذلكة منها . فاسمعوا ما تقول هذه الرسالة في البشائر الاربع :

فسأله صبحي : « ممن جاءتك هذه الرسالة » ؟

— «من قريبي الدكتور شاكر بطرس . أتعرفه ؟ »

— «لم اتعرف به شخصياً ولكني اعتقد انه رجل طيب جداً لان اخي يعرفه جيد المعرفة مذ ان كان طالباً بمدرسة الطب في القاهرة . ان اخي يشغل وظيفة مساعد استاذ في علم الامراض النسوية ، وكان يحب شاكراً حباً جماً ، حين كان تلميذاً له . وكان متعوداً ان يقول لي عنه : «يا ليت عندنا كثيرين من طراز شاكر . فانهم كانوا يشرّفون مهنة التطبيب في مصر »

فصاح كثيرون منهم قائلين : « اسمعوا . اسمعوا » ! !

اما كمال فقد اظهر ميلاً الى تصديق هذه الشهادة الى اقصى حد ، لا كأنها مجرد مجاملة صادرة عن صبحي كعادته في تمليق كمال احياناً

وقال علي : «على اي حال نريد ان نسمع كلامه المدوَّن في هذه الرسالة»

فاخرج كمال الرسالة . وشرع يتلو فيها الكلمات الآتية :

« ليس بخافٍ عليَّ ، ما يعترض به علينا البعض قائلين : ان للمسيحيين اربع بشائر ليست متفقة في رواياتها . فاذاً في امكاني ان اقدّر الصعوبة القائمة امامنا في هذه الناحية . لان هذه الصعوبة عينها اعترضتني قبلك . ولست الآن محاولاً ان اكتب اليك في هذه العجالة كل ما قيل في هذا الصدد ، وانما انا اكتفي بتوجيه التفاتك الى هذه الحقيقة — وهي اننا اذا

طالعنا كل بشارة بامعان ، تبين لنا ان كل واحدة منها تظهر جانباً خاصاً من حياة المسيح . مثال ذلك: ان احدى البشائر تقدمه لنا باعتبار كونه ابن داود، واخرى تصفه باعتبار كونه «عبد يهوه»، واخرى تحدثنا عنه باعتبار كونه ابن الله . ولكن الشيء الذي يهمك معرفته هو ان البشائر الاربع مجتمعة معاً تقدم لنا صورة كاملة للمسيح الواحد ، بكيفية لا تتأتى لبشارة واحدة . فكما ان النظر الى جانب واحد من ماسة جميلة لا يمكن المرء من الاحاطة بكل جمالها، كذلك النظر الى جمال المسيح من خلال بشارة واحدة لا يعطينا صورة كاملة عنه . لذا كان من الضروري ان يكتب عنه اربعة بشيرون لان كمال جماله عديم المثال . وفوق ذلك ، اذا قابلنا البشائر بعضها ببعض ، اتضح لنا انها خالية كل الخلو من التناقض وانها على العكس من ذلك مطابقة لبعضها بصورة عجيبة . على انني لست بغافل عن وجود الخلاف الظاهري الذي يعترض به البعض على الانجيل ، نظير الكلمات التي كتبها بيلاطس على الصليب. فأنا مسلّم بان بشارة لم تتفق مع الاخرى في تسجيل تلك الكلمات. وجواباً على ذلك اقول : ان الخلاف في هذا الباب يُعزى في الغالب الى التباين الكائن بين اللغات المختلفة التي كتبت بها تلك الكلمات: اليونانية ، والعبرانية ، واللاتينية . وفي الغالب كل بشير نقل هذه الكلمات من لغة غير التي نقلها منها الآخر . واني اناشدك يا كمال ألا تشغل بالك بما تراءى لك كأنه تناقض في آيات الانجيل ، بل ان تتعمق في البحث عن جوهر الحقيقة ولا شك انك توافقني تمام الموافقة على ان البشائر الاربع متفقة تمام الاتفاق في جوهر الحقائق التي تنادي بها »

بعد تلاوة هذه الكلمات . استوقف كمال نفسه وتطلع الى فوق :

فقال صبحي « حسن جداً . ان هذا يحل العقدة التي تناولها الكاتب . ولكن ماذا يرى في الاعتراض الذي ذكرته عن كون المسيح قد ترك الفرصة الذهبية التي أُتيحت له بامكان صيرورته ملكاً » ؟

اجابه كمال : « كلا . ولكنني اذكر انه حدثني مرة في هذا الباب . ومع انني لا اذكر الآن بالضبط ما سألته عنه وقتئذ الا انه اجابني عنه بكلمات مثل هذه : ان كل مملكة مؤسسة على القوة المادية لا يمكن ان تقوم الى النهاية . وان المسيح جاء ليؤسس مملكة روحية ، لا مادية . وان مملكته تقوم بالمحبة والايمان ، لا بالبطش وحد الحسام ، ومع ان هذه فكرة غريبة لكن هذا ما قاله لي على كل حال »

قال صبحي : « كل من نظر الى التاريخ نظرة دقيقة ، تبين له ان هذه الكلمات منطوية على شيء كثير من الحق. فكل مملكة من الممالك العظمى التي سيطرت بقوتها على التاريخ اضحت اليوم في خبر كان . وكذلك كل مملكة قائمة على القوة لا بد ان تنهار عاجلاً او آجلاً . اما عن وجود مملكة روحية مؤسسة على الايمان والمحبة ، فهذا شيء جديد لم اسمع به من قبل — نعم هذا شيء جديد عليّ »

فقال كمال مؤمناً : « لا بد لي من أن اصارحكم الحقيقة — ان كلام قريبي مقنع غاية الاقناع . هل تريدون ان تسمعوا مزيداً من رسالته ؟ ان ما تلوته عليكم ليس سوى سطور يسيرة منها »

اجابه محمود افندي — وقد كان قلقاً طوال وقت الحديث والمناقشة: « يلوح

لي يا كمال انه ربما كان من الانسب ان تأخذ هذه الرسالة معك وتدرسها بامعان في فرصة اخرى . لانها رسالة طويلة ، تحتوي على موضوعات كثيرة . وفوق ذلك فان الوقت قد أمسى ، ولا بد لنا من الانصراف يا اخوان . أليس كذلك » ؟

وبما ان هذه الكلمات التي فاه بها محمود أفندي كانت معبرة عن رأي الاغلبية ، لذلك قصروا الحديث على ما فات . ودفعوا للخادم ثمن ما اكلوا وشربوا ، وانصرفوا جماعة الى الشارع حيث كانت تنتظرهم سيارة أجرة . وفي الطريق عقّب صبحي على حديث السهرة بهذه الكلمات :

« يتضح لي ان اولئك المسيحيين — على الاقل بعضاً منهم — تعلوهم مسحة من الشرف . لان صديقاً لي يشتغل بقالاً في بني سويف — وبين زبائنه مرسلون مسيحيون . حدثني هذا الصديق مرة ان احدى السيدات المرسلات هناك ، جاءت الى بقالته يوماً ما ، وقالت له انها لاحظت خطأ في « فاتورة » الحساب التي كان قد أرسلها اليها . وانه سهي عليه أن يسجل أحد الاصناف في تلك « الفاتورة » ، وان ثمن هذا الصنف المتروك يساوي نحو أربعة أو خمسة قروش ، وانها جاءت الى البقالة لتدفع له هذا الحساب الذي سهي عليه تدوينه . فما رأيكم في هذه المسألة التي لم يكن في امكان صديقي ان يتداركها من نفسه لولا أمانة تلك السيدة ؟ »

فأجاب كمال : « لا شك ان الضمير الذي يكون حساساً الى هذه الدرجة يكلف صاحبه الشيء الكثير » . قال كمال هذه الكلمات وهو متفكر في المبلغ الذي دفعه عنه قريبه شاكر لرئيسه الذي كان يعمل معه أولاً ، تسوية لحساب كان كمال مديناً به ، لكنه كان يخجل من التصريح به

الفصل الثامن

كان كمال مكباً على عمله في مكتبه، من وراء الفاصل الزجاجي بحيث كان يتمكن بلمحة واحدة من مشاهدة كل شيء في الجاراج . اما مكتبه فلم يكن الآن مثلما كان سابقاً في ذلك المحل الفخم المشرف على شارع قصر النيل لانه نقل الى مكان جديد متواضع يملكه هو ويديره بنفسه . لم يكن قد مضى على افتتاح هذا المحل سوى وقت قصير فكان كمال مشتغلا بمراجعة بعض الحسابات المتعلقة بمصاريف الانتقال الى المحل الجديد . وكان من دواعي غبطته وسروره ان قد تبين له ، انه بدأ عمله في محله الجديد وهو خال من الديون. ويعزى جانب كبير من هذا، الى المبالغ التي كان يقتصدها حين كان موظفاً في المحل السابق ، ويضاف اليها تلك الاموال كانت تصله بطرق معينة ستتجلى لنا في هذا الفصل . وفيما هو متفكر بهذه الامور لمح شبحاً ينسلّ من الباب الخارجيّ

فنادى بلهجة الآمر : « محمد . . . محمد » !

فأتاه الرد من مكان ناء : « نعم » !

وفيما كان يهم لملاقاة عميله الذي كان وقتئذ خارجاً من سيارته ذات الثلاثة المقاعد ، نادى غلامه قائلا : « تقدم حالاً وضع نفسك في خدمة البيه . احفظ سيارته في احد الأركان وانظر ما اذا كان يلزمها شيء » . ثم تقدم هو الى عميله هاشاً وهو يقول : « كيف حالك يا بيه » ؟

اما ذلك العميل المتباهي فقد رد عليه التحية بعجب وعدم اكتراث

قائلاً «شكراً. احوالي حسنة .... اهنئك بهذا «الجاراج» الجديد الذي يمتاز عن القديم في مدخله الوجيه. اما ذاك فان مدخله كان ضيقاً يقبض الصدر»

فقال كمال متحمساً: «وفوق ذلك فهو مكان رخيص على العميل وعلى صاحب المحل. فمن الحكمة ان يكون الانسان مقتصداً في هذه الايام. أليس كذلك»؟

«الحق» معك يا صاح. فانك اذا خفضت الاسعار، امكنك ان تجعل محلك عامراً. ويغلب على ظني ان صاحبنا هناك — اعني ذلك الشيخ المعمر — سيخفض اسعاره عما قريب»

قال كمال: «أظن ان الفرصة ضاعت عليه على كل حال وقد هجره جانب كبير من العملاء» ومع ذلك.... وهنا توقف كمال فجأة عن الكلام لانه احس بشبح قائم من ورائه. وفيما هو مفكر بالاتجاه الى خلف شعر أن شخصاً ربته على مؤخرة ساقه. فادار وجهه الى الخلف بغاية السرعة، ولشدة دهشته لمح نقولا مطلاً عليه، ضاحكاً من خلال احدى نوافذ سيارته الفخمة المقفلة

فتطلع اليه كمال بسخرية لاذعة وقال: «هل جئتني لتقضي على البقية الباقية مني»؟

ثم رفع كمال يمناه محيياً عميله تحية الوداع: «مع السلامة يا بيه»

اما نقولا فقد وجه الخطاب الى كمال بخفة روح قائلاً: «انما جئت لاقرئك السلام يا كمال. فهل في نيتك الخروج حوالي الساعة واحدة او واحدة ونصف بعد الظهر»؟

فسأله كمال : «وهل تظن انه من الواجب عليَّ ان اذهب انا أيضاً » ؟

« لا شك في ذلك مطلقاً . فمن المحتم عليك ان تذهب . لانه من الواجب ان نكون موجودين هناك سوية. ولسوف تكون هذه اكبر صفقة نقوم بها في هذا الموسم. واذا فزنا بها فلا بد ان يصيبنا من ورائها غنى جزيل . فاذا كان صالحك يهمك، وجب عليك ان تكون موجوداً بنفسك هناك»

— حسناً. سأنظم شغلي وفق هذا الترتيب. ولا يغرب عن بالك يا صاح انه لم يكن من السهل عليَّ ان اهيئ محلي على هذا النمط البديع في هذه الفترة الوجيزة التي مرت عليَّ منذ وقت افتتاحه . واراه غبناً على عملي هنا ان اتركه في مهده وابتعد عنه مدة ثلاثة ايام متوالية ، ولكن بما اني قد بدأت معك في ذلك الامر فلا بد من انجازه. وعليه سأكون في انتظارك هنا الساعة الثانية بعد الظهر . وعلينا ان نقطع هذه المرحلة في اربع ساعات ونصف . أليس ذلك في الامكان ؟ لعلك تذكر انها لم تستغرق سوى هذا الوقت في رحلتك الاخيرة »

قال نقولا : « ولكن لا تنس اني املك الآن سيارة جديدة تسابق الطيارة في سرعتها فلا بد من ان نقتطع من الوقت نصف ساعة أخرى »

فاجابه كمال : «لي وطيد الثقة فيك انك تضرب الرقم القياسي في السرعة وانما انا اخشى انك تودي بحياتي يوماً ما ، من فرط سرعتك » . قال كمال هذه الكلمات فعبَّر بها عن حقائق اكثر مما كان يقصد

* * *

« هل لك ان تدلني بالضبط على موعد وصولَ الباخرة » ؟ سأل كمال

هذا السؤال وهو جالس الى جانب نقولا في سيارته التي كانت وقتئذ قد دنت بهما من ذلك الطريق العمومي المؤدي الى ثغر الاسكندرية. وكان من السهل عليهما ان يتبينا ذلك من خلال المباني الشاهقة التي كان يتكسر على هاماتها خط الافق

اجابه نقولا : «اظن انها سترسو هنا حوالي الساعة الثانية صباحاً . هذا ما يمكنني ان استنتجه من المعلومات التي استقيتها من مكاتب شركات السياحة . ويترتب على هذا ، ان المسافرين يتناولون طعام الافطار في الوقت المعتاد ومن ثمَّ ينزلون من الباخرة متى شاءوا »

— « اظن ان بتريدس سينزل ايضاً مع سائر المسافرين . . . »

— «بالطبع . سيكون هو في صحبة الجماعة . وفوق ذلك فاذا خرج ممثل الحكومة الايطالية ، قبل الجماعة فان عمله هذا يكون مثاراً للشبهات . لانه ليس معلوماً عن ممثلي الحكومات انهم يشرعون في اعمالهم منذ الصباح الباكر. لذلك اعتقد انه سيظل على ظهر الباخرة في الصالون، الى أن نعطيه اشارة بان كل شيء معد

وهنا لاحظ امامه منعطفاً حاداً في الطريق فحوّل اتجاه سيارته فجأةً لدرجةٍ توقفت فيها عجلتان عن الحركة مسافة بضعة أمتار . ثم استطرد في القول: «ولما كان الشيء بالشيء يذكر، فاني اذكر اني تسلّمت في هذا الصباح مكتوباً من ثيتاليس يعرفني فيه ان كل شيء مُعَدّ . ولا يخفى عليك ان هذه الاستعدادات كلفتنا الشيء الكثير — من ذلك ثمن الهندام الرسمي الذي يرتديه الشخص المدَّعي انه قادم من القنصلية ، والتكاليف التي تكبدناها

في اعداد الاوراق الرسمية المزورة. وما الى ذلك من الشئون . ولكن كل هذه التكاليف ستعود علينا بربح جزيل يا صاح . فتفكر في الربح الطائل الذي سنصيبه بعد ما ننجح في تدبيراتنا هذه . فمتى حصلنا على نصيبنا من الغنيمة امكننا ان نعود به الى القاهرة وكلما بكرنا في توزيعه ، كان ذلك أفيد لنا»

فسأله كمال : «وقد بلغا الآن طريق الرَّمل — لكن اين يكون الملتقى في هذه الليلة ؟ »

أجابه نقولا: «في بنسيون استور ، الساعة ٩ مساء . على انه ليست لدينا أشياء كثيرة نتحدث عنها سوى انهم سيخبروننا عن المعدات النهائية التي نتخذها للغد»

واذ صعد كمال ونقولا الى مكانيهما في الفندق الذي نزلا فيه ، وبعد التشاور مع زملائهما المحليين المقيمين في فندق استور، قال كمال لنقولا «علمت بسرور ان الباخرة لا تصل قبل الساعة ٩ صباحاً ، فيترتب على هذا ان جمهور المسافرين سيخرجون دفعة واحدة . وستحدث آنئذ ضوضاء وجلبة مما يسهل علينا التردد هناك من غير ان نسترعي التفات أحد»

«هذه المهمة الصغيرة تناسبنا جداً . أليس الامر كذلك يا كمال ؟» قال نقولا هذه الكلمات والحماس يتدفق من بين جوارحه . ثم تابع كلامه قائلاً : «ليس علينا الا التردد هناك لنرقب عن كثب ما يمكن ان يتهددنا من خطر»

— أي نعم . فأنت تعلم اننا ندفع مبالغ باهظة لأولئك الفتيان لينفذوا خطتنا على أحسن منوال . امام هذه التكاليف الباهظة التي نتكبدها ، لست أرى لِمَ يتحتم علينا أن نتحمل أيّ ضرب من ضروب الخطر — أمستعد أنت

ان تتحمل شيئاً من الخطر؟ انا أفضل ان نظل بعيدين على حذر الى ان نتحقق زوال كل خطر»

قال نقولا : « أوافقك على هذا . ان شعاري دائماً هو : «نفسي نفسي قبل كل شخص ، وقبل كل شيء»

* * *

ما كاد الصباح الباكر يطلع حتى كان الشابان سوية على رصيف الميناء، ولم تكن الباخرة قد دخلت الى الميناء بعد ، فكان أمامهما متسع من الوقت للتحدث والمشورة . وبين الموضوعات التي تحادثا فيها : هذا المشروع الذي اشتركا فيه — ذلك ان كمية كبيرة من الهروين كانت قد أعِدَّت في بلاد البلقان ، ثم نُقلت الى ايطاليا من غير كبير عناء ، وكانت الآن في الطريق بين نابلي واسكندرية ، وكان هذان الشابان يؤمّلان انه بواسطة تدبيراتهما المحكمة، المرموقة بحسن الطالع، يستطيعان ان يتسللا بها من الحواجز الجمركية، ثم يقتسمانها حالاً ويوزعانها على مراكز البيع المنبثة في جهاتٍ منوعة . وهناك يتم مزجها بعقاقير كيماوية تسهيلاً لتوزيعها ، واستدراراً لاكبر نصيب من الربح

قال كمال: «يا نقولا: انها لصفقة رابحة، هذه التي سنفوز بها بعد قليل». همس كمال بهذه الكلمات في أذني رفيقه وهما يغدوان جيئة وذهاباً تحت مظلة أحد أرصفة البضائع

— «لا أريد يا كمال ان تغفل لحظة عن هذه الحقيقة : وهي ان تنفيذ

هذه الخطة،ليس علينا بل على أولئك الفتيان الذين سنجزيهم أكبر نصيب من المال لقاء تعريض حياتهم للخطر »

— « كلام جميل ! ولكن ان أُمْسِكوا متلبسين بالجريمة ، فهل تظن انه بامكاننا نحن ان نفلت ؟ ألا تظن انهم يفضحون أمرنا »

أجابه نقولا : «انهم ، يا صاح ، يضحون بكل شيء في سبيل حرصهم على حياتهم . وعلى أي حال ، ما لنا ولهذا الحديث الآن ، «فكلُّنا في الهوى سوا ، كما يقول المثل»

«ظُنّ خيراً ، وتعالَ بنا نتحدث في موضوع غير هذا . قل لي يا كمال : ما هذا الذي كنت تحدثني به عن زوجتك حين كنا قادمين في السيارة ؟ أمريضة هي ؟ أم ماذا ؟ لِمَ كنت تخشى ان تتركها في القاهرة؟»

— «ليست مريضة ، بل متمتعة بصحة جيدة . وانما كنت أخشى ان أتركها وحيدة في هـذا الظرف الحاضر فترة طويلة كهذه . . . وها أنا أصدقك القول . . . اني كنت أخشى كثيراً انها ترجع الى بيت أبيها في هذا الظرف الحاضر »

— « لا غبار عليها في هـذا ما دمتَ غائباً . أظن ان لاحقّ لك ان تلومها في ذلك ، فكل فتاة تحنّ الى بيت أبيها». كل هذا وكمال لا يدري ان نقولا يحاول ان يتجسس أخباره الخصوصية

— «الظاهر يا نقولا انك لست مقدّراً الظرف كما يجب. فالأمر ليس من السهولة بالقدر الذي تظنّ. أنا أخشى انها اذا ذهبت الى بيت أبيها مرة، فانها تتوق الى العودة اليه والبقاء فيه مدة أطول . وقد كنت الى الآن دقيقاً في

هذا الأمر غاية الدقة، فمنعتها بتاتاً من الذهاب الى بيت أبيها. وكان من الميسور لها اطاعة أمري لاني الى الآن لم أتغيب عن منزلي اكثر من يوم. من أجل هذا كنت أتردد كثيراً في تغيبي هذه المرة، هذه المدة الطويلة، التي تتمكن فيها من الاشراف على عملنا عن كثب»

قال نقولا: «فالأمر اذاً كذلك وأنا كنت أجهله حتى الآن. لانك لم تلمّح لي من ذي قبل عن شيء من متاعبك التي تعانيها في بيتك مع زوج...»

فقاطعه كمال حنقاً: «ومن قال لك اني اعاني متاعبَ في بيتي مع زوجتي؟ أنا لا أسمح لكائن من كان ان يتدخل في شئوني الخاصة المتعلقة بي وحدي دون سواي»

فقاطعه نقولا محاولاً أن يطفئَ لهيب حدته: «خفف عنك يا صاح! انا أخشى انك باحتدادك هذا، تفضح شئونك الخاصة لدى الملأ. ولعلّ اولئك القوم الجالسين على مقربة منا قد كوّنوا لأنفسهم فكرة عن أمرك هذا»

فطفق كمال يقول بصوت أقل حدة من الاول ولكن بلهجة حماسية: «انا لا أرضى لك ولا لاي شخص آخر بالتدخل في شئوني الخاصة. لان لي الحق ان أدير شئون بيتي بغير مداخلة أحد — أنا لستُ أعنيك أنت بالذات في قولي هذا — وانما انا أقصد بعضاً من أقاربها المزعجين الذين يحومون دائماً حول بيتي مدة غيابي، محاولين ان يختلسوا كل ما يمكنهم من الاخبار. ولست أدري لِمَ لا يقصر كل منهم همه على نفسه وشئونه الخاصة دون التدخل فيما لا يعنيه»

أما نقولا فقد وجد شيئاً من اللهو والتسلية في هذا التصرف الغريب

الذي بدا من زميله. سيما بعد ان عرف ان وراء تحامله على أنسبائه أسباباً معيبة وفي الوقت نفسه صمم على ان يستدرج كمالاً ليفضي اليه بما بين ضلوعه من أسرار. فقال له : «أريدك يا صاح أن تكون رجلاً منطقياً معقولاً . فلست أرى غضاضة في زيارة أهلها لها لان هذا حقّ طبيعيّ . أليس كذلك ؟»

— «أي نعم ... ولكن ... »

— «ولكن ماذا؟ هل هي تبوح لهم بشيء من الاسرار ؟ أنا أعلم ان هذه شيمة النساء »

— « آه . انهم يلتقطون كل ما يمكنهم جمعه من الاخبار المقلقة ثم يأتون اليَّ محاولين ان يملوا عليَّ الطريقة التي أعامل بها زوجتي . ولكن ثق اني لا ألاطف ولا أجامل أمثال هؤلاء القوم بل أجابههم بكل صراحة واقطع عليهم طريق الجدل والمناقشة. ومن نكد الدنيا انهم لا يحفظون في صدورهم مايلتقطون من أخبار سيئة ، بل يجولون في الشوارع والطرقات وينثرونها على رؤوس الملأ . وتأكد ان هذا يزيد الطين بلة»

فقاطعه نقولا بلهجةٍ تكلَّف فيها شيئاً من العطف والمواساة ، وقال : « وبالطبع ، اللوم في كل هذا واقع على زوجتك التي لا تحتفظ بأسرار بيتك»

— «أراك قد أصبتَ كبد الحقيقة يا نقولا . ولكني أرى اننا تحدثنا في هذا الموضوع البغيض اكثر مما يجب . فلنتركه الآن لنتجاذب أطراف الحديث في موضوع آخر . . . أظن ان وقت وصول الباخرة قد دنا ، ها انا أراها تدخل الميناء الهوينا . أليس كذلك ؟ »

حقاً كان دخول الباخرة الى الميناء مروِّحاً عن نفس كمال ، لأنه أنقذه

من التورُّط في هذا الحديث البغيض على نفسه . وهنا قرَّ رأي الزميلين على مغادرة أحدهما الآخر الى حين ، ليندسا بين جمهور المزدحمين على الرصيف وفي مكتب الجمارك والمكوس

لم يمض عليهما وقت قصير حتى اهتديا الى شريكهما بتريديس الذي كان يلوّح لهما ولزميلين آخرين ، كان عليهما ان يلعبا دوراً هاماً في المسألة حتى يستخلصا البضاعة من الجمرك من غير أن تفتح . وكان بتريديس هذا قد أرسل اليهم برقيـة لاسلكية في الليلة البارحة يقول فيها: «سنصل غداً». وكان من المتفق عليه أن يرسل التلغراف بالشفرة فكانت هاتان الكلمتان الرمزيتان تعنيان : «كل شيء على ما يرام . لا يوجد أقل خطر» . وأيد هذه الرسالة بتحريك ذراعه على صورة مُتفق عليها . وحالما أُتيح لهم أن يصعدوا الى السفينة على الصقالة ، تقدم نقولا صاعداً واختلط مع جمهور المستقبلين للركاب. وفي أسرع من لمح البصر اتصل بزميله وانفرد بعض الوقت ليتأكد منه ان كل شيء سائر على ما يُرام وليعطيـه بعض التعليمات النهائية عن آخر خطةٍ يعملون على تنفيذها بعد دقائق معدودات—وهي الضربة القاضية التي توَّجت سلسلة مؤآمرات كانت الى الوقت الحاضر قد تخطت نظر السلطات فلم تثر لديهم أقل الشبهات — وصاروا يعلّقون أهميةً كبرى على هذه الضربة القاضية . فإما ان يرتفعوا بعدها الى أوج الغنى ، أو أن يفتضح أمرهم فيهبطوا الى الحضيض

ومع ان كمالاً ونقولا كانا معرِّضين جزءًا كبيراً من أموالهما للضياع ، إلا أنهما من الجهة الأخرى لم يشعرا انهما عرَّضا نفسيهما لأيِّ خطر . لان

الرقابة التي كان عليهما ان يقوما بها في ساعة الخطر، قد جعلتهما ان يشعرا انهما في مأمن من كل خطر. سيما وانه لم يكن لهما أي نصيب مباشر في عملية انزال المخدرات من الباخرة. وقد صمم كلاهما — سيما كمال بنوع خاص — على أن يبتعدا ما امكنهما عن المخدرات وعن العصابة المأجورة لانزالها من الباخرة، الى ان يتبيَّن لهما بكل وضوح ان كل شيء قد تخطى نظر لجنة مكافحة المخدرات. وكان الاختبار قد علَّمهما من حوادث سابقة ان تدبيراتهما كانت مُحكمة غاية الإحكام وان النجاح كاد يكون حليفهما. ولكن في اللحظة الاخيرة وقع افراد عصاباتهما في الفخاخ وهما آمنان مطمئنان

في ضوء هذه الاختبارات كان كمال يرقب عن كثب كل الاجراآت بكل دقة. وما هي الا دقائق حتى أبصر شاباً مرتدياً كسوةً رسمية صاعداً على الصقالة ويتبعه «قوَّاص» بملابسه المزركشة المقصبة اللامعة. ثم اختفيا فجأة، وعادا الى الظهور على ظهر الباخرة ومعهما بتريديس باسمَ الثغر منشرح الصدر، فاستنتج كمال من ملامحه هذه ان كل شيء سائرٌ على ما يرام. وبعد ان نزل هؤلاء الثلاثة عن الصقالة، تبعهم حمالون يحملون على ظهورهم خمس حقائب من الجلد هي في حجمها اكبر نوعاً من حقائب الملابس وأصغر من صناديق الملابس السفرية. فتبعهم كمال متباعداً عنهم على قدر ما يمكنه من تفادي الخطر، وفي الوقت نفسه مقترباً منهم على قدر ما يتمكن من سمع الحديث الجاري بينهم باللغة الايطالية التي كان يفهم منها الشيء القليل

والآن قد وُضعت الحقائب الكبرى على طاولة مكتب الجمارك، وكان بتريديس يحمل مكتوباً بخط ذلك الشاب المرتدي الكسوة الرسمية،

فتقدم به الى مدير مكتب الجمارك، وفي صحبته ذلك الشاب «الرسمي» والقوّاص. اما نقولا فقد لحق بكمال ووقف كلاهما من وراء حاجز المكتب الزجاجي ليرقبا كل شيء عن قرب وعن بعد، فلمحا المدير يتناول المكتوب و يفضه و يقرأه. وكان كمال عالماً بما يحيط بذلك المكتوب من أسرار وانه مزوَّر على ورق «رسميّ» مطبوع بطابع «القنصلية الايطالية»، وعليه توقيع مزوَّر باسم القنصل الايطالي. و يتضمن هـذا المكتوب طلباً الى مدير مصلحة الجمارك بأن يسمح بمرور الحقائب الخمس من الجمارك من غير ان تُفتح وفقاً للاصول المرعية مع قناصل الدول. لأن هـذه الحقائب تحوي أوراقاً رسمية بحتة خاصة بالقنصلية. وبعد ان فضَّ المدير ذلك المكتوب، قرأه وأمعن النظر في الختم المذيل به، وأفضى الى بتريديس ببعض الكلمات، ثمَّ همَّ خارجاً من مكتبه متسائلاً عن المكان الذي وُضعت فيه الحقائب. واذ أرَوه موضعها، ألقى عليها نظرة عاجلة، وأحصى عددها، و بعد ان ألقى نظرة أخرى على المكتوب الذي لم يزل بعد بيده، طلب قطعة طباشير من احد الموظفين، وما كان أشد اطمئنان بتريدس ورفاقه حين رأوا المدير يؤشر على الحقائب تلك الاشارة المعهودة التي تبيح اجتيازها الحواجز الجمركية من غير أن تُفتح

ثم خاطب الموظف الذي ناوله قطعة الطباشير، باللغة العربية قائلاً: «لتكن امتعة هذا السيد موضوع عنايتك الخاصة»، ثم ادار الحاظه الى بتريدس وحياه بكل احترام وقال له: «ستنتهي كل الاجرآات الخاصة بامتعتك في لمح البصر. استودعك السلامة، يا سيدي»! بعد ذلك تراجع

بضع خطوات الى الوراء ليتمكن من مراقبة كل ما يجرى امامه ، وفي الوقت نفسه تظاهر كأنه لم يعد له شأن مع بتريدس. اما كمال ونقولا ، فقد استنتجا من بعض القرائن،ان ذلك المدير كان يرقب كل ما يجرى من طرف خفيّ ، ومع ذلك فلم يداخلهما اي خوف من جراء تفتيش امتعة بتريدس لانهما كانا يعلمان جيد العلم انه احتاط للطوارئ شديد الاحتياط وكانا . يثقان ان امتعته خالية من كل ما يثير الشبهات.ثم لاحظ كمال ان ذلك الموظف امسك بمنظار مكبر ليرى به جيداً ما اذا كان اسمه مكتوباً عليها ، فوجد عليها هذين الحرفين « م . ب »وكذلك استطاع ان يجد هذين الحرفين مكتوبين على كل الادوات الموجودة داخل الحقائب . وحالاً تقدم القواص وسائر الرجال المرتدين الملابس الرسمية الى الحقائب ووضعوها في سيارتين ضخمتين — كانت احداهما سيارة فخمة مقفلة يقودها سائق مرتد كسوة رسمية ، والثانية سيارة مأجورة . وحالما فرغ بتريدس من وضع حقائبه في السيارة ، جلس في احد المقاعد الخلفية بالسيارة المقفلة ، بكل عجب وفخار ، ثم انطلقت به السيارة تنهب الارض نهباً . واذ لاحظ كمال ونقولا ان كل شيء قد سار حتى الآن على ما يرام ، من غير ان تلحظهما عيون الرقباء سارا معاً واسر كل منهما الى الآخر بحديث الغبطة والاطمئنان

قال نقولا : « الى الآن وكل شيء يسير على أسلوب أنعم من الحرير ، ويلوح لنا اننا نجحنا حتى الساعة في العبث بعقول هؤلاء الناس الاغرار »

فوافقه كمال قائلاً : «اي نعم . فكل شيء يبدو مشرقاً بهيجاً حتى هذه الساعة . ولكن لا تنس ان مهمتك لم تنته بعد . عليك بمراقبة مكتب

المدير ، فلعله يتخاطب تليفونياً مع دار القنصلية في اية آونة ليتأكد من صحة الشهادات والاختام المدموغة بها. هذا احتياط ينبغي الا نغفل عنه قط . ومن المعلوم اننا لا نستطيع ان نطيل الانتظار هنا لان عيون الرقباء تلحظنا »

من ثم سار كمال تجاه ذلك المقهى المعروف بال «ماجستك» ، الكائن في شارع الالفي باشا على مقربة من الميناء ، لانه علم ان رئيس العصابة ووكيله منتظران هناك ليتسقطا آخر الاخبار . وفيما هو داخل الى « صالون » ذلك المقهى استوقف نظره مشهد عجيب . اذ اتفق له ان وصل الى المكان في اللحظة التي فيها القى رئيس العصابة سماعة التليفون من يده وتراجع بعض الخطوات الى حيث كان رفيقه جالساً . وفي أسرع من لمح البصر ، وقبل ان يتمكن كمال من الدنو منه اذا بجنديين انجليزيين يقفزان من مكانيهما ويتقدمان نحوهما . اما كمال فقد جلس في اقرب مقعد صادفه ، وكانت هذه الحركة سبباً في لفت نظر الجنديين اليه ، وافهمتهما ان وراء الاكمة ما وراءها . وهنا لاحظ كمال ان نظرة يتطاير منها الشرر قد صُوبت نحوه من شخصين كانا جالسين حول مائدة واقعة في الجانب الآخر من الصالون ، وقد ازدادت هذه النظرة حدة عند ما أخرج احد الجنديين ورقة من جيب صدرته واراهما اياها . وفي الوقت نفسه تقدم الجندي الآخر خارجاً من المقهى وأومأ الى رجلين كانا جالسين حول مائدة في الخارج ، وهذان بدورهما غمزا بطرف عيونهما ، على كيفية معينة ، وتبعاه الى الداخل

اما كمال فلم يقو على الانتظار اكثر من ذلك لانه ادرك الآن ان

خيوط الشرك تُحبك له بغاية السرعة وأنه عما قريب سيقع فيها ما لم يتدارك الأمر بفطنته ، وينجو على اجنحة البرق

وفي هذه الآونة اخذ الخوف منه كل مأخذ حتى سبح في لج من عرق الفزع والوجل وهو يهرول راجعاً الى الميناء . فهل يُتاح له الآن ان يلحق بنقولا لينذره بالخطر المحدق ؟ فركض بمحاذاة شارع الالفي باشا ليصل الى المكان الذي اوقف فيه نقولا سيارته ، وما هي الا برهة وجيزة حتى تيقن ان سيارة نقولا لم تزل بعد في الانتظار ، فتنفس الصعداء . وحالاً فتح بابها والقى بنفسه على احد مقاعدها وشرع يجفف العرق المتصبب على جبينه وهو يرتجف كقصبة مرضوضة هزتها عاصفة هوجاء

* * *

وبعد فترة وجيزة انطلقت بهما السيارة تنهب الارض نهباً بين الاسكندرية ومصر . وفي اثناء الطريق كان نقولا يردد على مسمع كمال هذه العبارة : « تأكد انهم لن يفضحوا أمرنا . انا واثق من هذا كل الثقة . كلا . كلا . انهم لن يرجعوا في كلامهم »

قال له كمال : «ان اول ما علينا ان نقوم به حالما نصل الى القاهرة، هو ان نتخلص من البضاعة المخزونة لدينا . ولست ادري كيف نتصرف فيها»

اجابه نقولا : «خلّ عنك هذا الأمر فأنا به كفيل . أوَ هل تظن اني لم افكر فيه من قبل» ؟

عدا هذه الكلمات لم يتفوها بشيء في الطريق بل قطعاه في صمت رهيب . وفيما هما يجتازان منطقة بعد الاخرى من المناطق المرابطة فيها جماعة

من الجند، كان الخفقان يعبث بقلبيهما، لكنهما على رغم تخوّفهما، مرّا بكل سلام من غير ان يستوقفهما احد في الطريق

ولكن كمال كان دائم التفكير في موقفه الذي آل اليه . ومراراً كان يسائل نفسه عن حقيقة ذلك الشخص الذي كان جالساً بجانبه في السيارة وهو يهمهم حيناً ببعض الكلمات التي لا يسمعها احد سواه ، وحيناً آخر يقذف ببعض الشتائم على المارة الذين يصادفهم في طريقه ، فكان كمال يقول في نفسه عنه : « يا ترى اهذا لي صديق ودود ، أم هو عدوّ لدود ؟ ألم اكن في البداءة مخدوعاً في امره؟؟» حقاً لولا ذلك الرجل ، لكان كمال في حال غير هذه الحال. بقي امر آخر كان يجيش في صدر كمال، وهو: هبه نجا هذه المرة من قبضة القانون فانه لن ينجو من الخسائر المالية الفادحة التي جرتها عليه هذه الصفقة . وهنالك ما هو اكثر من ذلك اهمية واشد خطورة ، وذلك الخاطر الذى كان يختلج في قلبه، فلم يستطع ان يجد له تعليلاً — هو ترديد صدى كلمات كان قد قرأها في الانجيل على لسان المسيح: «ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ » . فيا ترى لِمَ هاجمه هذا الخاطر الآن ؟

هذا سرّ لم يقوَ على تعليله.. أكنتُ حقاً مخاطراً بما هو أثمن من المال وأهم من المركز الاجتماعي في هذا المشروع الذي تحدّيت به سلطة القانون ؟! ... أم اني بريء من كل جريمة وحرّ من كل جريرة لان الحكومة هيئة مبهمة لا شخصية لها ولا ضمير ...؟ ولكن ما العمل بأولئك المساكين الذين أضحوا ضحايا عملي هذا غير المبرور ؟ أولئك الذين عبثت المخدرات بأجسادهم وذهبت بعقولهم ؟ ... ولكن أليسوا هم المسئولين شخصياً عن كل أعمالهم ... وما ذنبي

انا اذاً ؟ أحارس أنا لأخي ...؟... ؟». «أحارسٌ أنا لأخي؟» ... أين قرأت هذه الكلمات ... هل عثرت عليها في التوراة ...؟»

يكفي الآن . فليس من الحكمة ان يطيل الانسان التفكير في كل هذا . وفوق ذلك فانه لو لم يكن قد اشترك مع نقولا في هذا العمل لما أتيح له ان يستقلّ بعمله في السيارات

هذا هو الفكر الرئيسي الذي كان يجول في مخيلته فصار موضوع اهتمامه

الفصل التاسع

في عصاري احد أيام الخريف ، كانت احدى السيارات الفخمة ذات اللون الذهبي ، تشق لنفسها طريقاً في شوارع القاهرة المزدحمة . وكان الوقت نحو الساعة الثالثة بعد الظهر . فكانت السيارة منطلقة في شارع ابرهيم باشا ، حتى بلغت ميدان باب الحديد ، الكثير الزحام بمختلف وسائل النقل . ومن ذلك الميدان ، اتجهت السيارة الى حيّ العباسية عن طريق شارع الملكة نازلي . واذ وصلت الى أقصى محطة في خط ترمواي السكاكيني ، اتجهت الى احد المباني الفخمة الآهلة بكثير من العائلات . ويلوح من السرعة التي كان يسوق بها السائق تلك السيارة ، في هذه المسالك المتعرّجة ، ان هذا الطريق كان مطروقاً لديه من قبل

واذ وقفت السيارة ، نزلت منها سيدة بلباسٍ أنيق ، ثم ارتقت ثلاث درجات من السلم ، واذا بها امام باب البيت الذي تقصد ، فضغطت بمبضعها على زرّ كهربائي . وسرعان ما انفتح الباب ، وظهرت من ورائه سيدةٌ جميلة الطلعة ، بدت على محيّاها سيماء الكآبة لحظة ، ثم ضبطت نفسها ، وأخفت كآبتها بين ضلوعها ، وتكلفت عوضاً عنها ابتسامة ضعيفة هزيلة نمَّت عما تحتها من بؤس وألم . فكانت هذه الابتسامة اجمل تحية قدمتها لزائرتها . ثم أدخلتها الى بيتها على الرحب والسعة . أما ربة الدار ، فهي مدام كمال . واما زائرتها فهي مدام الدكتور شاكر . وقد لاحظت الزائرة ان مضيفتها حيتها اليوم بكل شوق ولهفة . اذ قالت لها بكل بشاشة : «مرحباً بك يا مدام شاكر .

كيف أحوالك الآن؟ تفضلي. فأنا مسرورةٌ جد السرور للقياك». أما سرورها بلقاء مدام شاكر، فقد كان منبعثاً من سويداء قلبها، فترجم عنه اشراقٌ في وجهها، وبريقٌ في عينيها

أجابتها مدام شاكر بلهفة: «وأنا أيضاً جزلة لرؤيتك». ثم حانت منها التفاتة الى الطفلة «أنيسة»، وقالت: «أهـذه ابنتك أنيسة اللطيفة. لعلها بصحة جيدة»

— «أنا آسفة ان أخبرك، انها ليست منشرحة الآن. لان أصبعها أصابه رضٌّ من احد الادراج، منذ بضع دقائق. فلا بد ان يكون قد آلمها قليلاً، ولكنني واثقة ان الألم عما قليل يزول». ثم نظرت الى أنيسة، وقالت لها: «شـدي حيلك يا بنيتي. ولا تبكي، اكراماً لخاطر مدام شاكر، التي جاءت اليوم لزيارتنا. فلا شك انها صنعت معنا معروفاً كبيراً، اذ ضَحَّت بوقتها ومالها في مجيئها الينا من دمنهور»

— ثم التفتت مدام شاكر الى أنيسة وقالت لها بابتسام: «تعالي عندي وكلميني». ثم نظرت الى أمها وقالت: «يا لها من طفلة جميلة»!. ثم قامت ودخلت غرفة الاستقبال

— «هل تسمحين لي أن أمضي بهذه الطفلة بضع دقائق، لأغسل وجهها، ويديها وألبسها ملابس نظيفة بدلاً من هـذه، لانها كانت طوال الوقت تلعب هنا وهنالك»؟ قالت مدام كمال هذه الكلمات، ثم خرجت بابنتها من الغرفة، لا لكي ترتب هندام ابنتها فحسب، بل لترتب هندامها هي أيضاً وتزيّن نفسها»

في هذه الفترة، جلست مدام شاكر تسرح الطرف في انحاء الغرفة. وبما انها كانت قد زارت هذه الدار من قبل فقد امكنها ان تلاحظ، لأول وهلة، ان كمالاً قد نقل مكتبه الامريكي الفخم، ووضعه في احد أركان غرفة الاستقبال. ثم تناولت جريدة فرنسية كانت على الطاولة و بدأت تتسلى بمطالعتها، حتى تعود اليها ربّة الدار. فاستوقف نظرها في هذه الجريدة خبرٌ ملأ نهرين منها، كان عنوانه مطبوعاً بحروف مفخمة على الصورة الآتية: «أحدث الأنباء عما قامت به لجنة مقاومة المخدرات — القبض على مهربين متلبسين بجريمتهم — في الاسكندرية يوم الأربعاء». ومع ان مدام شاكر لا تهتم عادة بالاطلاع على مثل هذا الخبر، الا انها رغبت في مطالعته، لانه كان منشوراً في مكان ظاهر في الجريدة. وخلاصة الخبر، ان عصابة قوية — عمادها قوم من الاغريق، قد تآمر أفرادها على تهريب كمّيّة كبيرة من الهروين الى ثغر الاسكندرية. فأفسد عليهم رجال الشرطة خطتهم المدبرة. لان رجال البوليس الملكي كانوا عالمين بدقائقها منذ الشروع في تنفيذها. وكانوا يرقبون عن كثب كل تطوراتها. لذلك كانوا على أتم استعداد لمراقبة حركات هذه العصابة، خطوة خطوة، حتى قبضوا على أفرادها بطريقة لا مثيل لها من حيث الاقدام والمهارة، في كل تاريخ مقاومة المخدرات. وتضمّن أيضاً ذلك الخبر قصة اتفاق كمال مع نقولا في الاسكندرية، وذُيّل بملاحظات استنتاجية بقلم مدير لجنة مناهضة المخدرات. ومما قاله: ان من أعجب مظاهر تلك المؤامرة، الالتجاء الى حيله التستر وراء رداء القنصل الرسمي، وتزوير أوراق رسمية باسم القنصلية الايطالية — كل هذا ظل سراً مكتوماً الى ان

كُشِف أمره أخيراً . فاتضح ان هذه العصابة تضم أشخاصاً كثيرين ، بينهم بعض من المصريين . ثم ختم المدير ملاحظاته بقوله : ان المستقبل القريب سيتمخض عن حوادث خطيرة في مقدمتها القبض على أشخاص آخرين

ومع ان مدام شاكر ، كانت تتصفح هذا الخبر بعجلة ، الا انها لم تستطع ان تتخلص من التفكر في امر رب الدار التي كانت جالسة الآن تحت سقفها . فكانت تسائل نفسها : «يا ترى ، أهو متصل بهذه العصابة ؟ هل يقع قريباً في قبضة القانون ؟ أهذه عاقبة اشتباكه بتلك التجارة الغير المشروعة ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا يكون مآل زوجته التعيسة هذه ؟»

وفيما كانت هذه الخواطر تزدحم في فكر مدام شاكر ، أقبلت عليها مدام كمال ، ومعها ابنتها الصغيرة ، بعد ان البستها رداءً وردي اللون ، مصنوعاً من الحرير المصري . وعوضاً عن الصياح الذي استقبلت به هذه الطفلة مدام شاكر ، انطبعت الآن على محياها الوسيم علائم البشر والحبور ، وهي تطفر مرحة بجانب امها . وكأنها كانت شاعرة انها اضحت الآن في اجمل مظهر ، واحسن هندام

قالت مدام شاكر : «يا لها من ابنة تبدو جميلة في هذا الفستان الانيق . تعالي يا عزيزتي واجلسي بجانبي . فقد احضرت لك شيئاً تلعبين به» . ثم فضت غلافاً كانت تحمله بيدها ، واخرجت منه العوبة جميلة في شكل عروسة ، استرعت لاول وهلة التفات تلك الطفلة التي جلست تواً تتأمل ملابس « عروستها » . وفيما هي كذلك ادارت مدام شاكر وجهها الى مدام كمال ، وخاطبتها قائلة :

— « تفضلي اجلسي بجانبي وحدثيني ، فقد مضت علينا مدة طويلة لم نلتق فيها . فكيف كانت احوالك مذ أن افترقنا ؟ »

فجلست مدام كمال بجوارها ، وقالت بلهجة تنمّ عن شيء كثير من التردد : « اشكرك يا عزيزتي . فان احوالي على ما يرام » . الا ان مدام الدكتور شاكر ، استطاعت ان تستنتج من لهجة التردد التي اجابتها بها مضيفتها ، ان احوالها على عكس مقالها

فقالت لها : «يلوح لي من ملامحك انك متعبة . فمالي اراك الآن انحف بكثير منك في آخر مرة رأيتك فيها »

— «ولكنني اشعر ان صحتي جيدة حقاً . ومع اني عانيت كثيراً من حمى المتّ بي منذ شهر ، الا انني تعافيت منها الآن»

— «قد يكون هذا سبب ما ألاحظه عليك من تعب». ثم اشارت الى المكتب الامريكي الفخم الذي كان موضوعاً في احد اركان الغرفة ، وقالت: «اراك قد ادخلت الى منزلك قطعة جديدة من الأثاث لم ارها من ذي قبل. فهل احضرتموها منذ مدة طويلة ؟ »

اجابتها مدام كمال ، وهي شاعرة ان الحديث سيسير في اتجاه جديد : «هذا مكتب كمال ، قد نقله الى البيت منذ شهر . وهو ليس بمكتب جديد كما تعلمين ، وانما هو المكتب الذي كان يستعمله في محل عمله ، وقد استحضره هنا ليشتغل عليه في السهرة . ولطالما قضى ساعات طويلة امام هذا المكتب ساهراً ساهداً . واظن ان هذا السهر المتوالي له صلة بعمله ، مع انني اشك في ذلك كثيراً ، لانه ينجز الجانب الاكبر من عمله في اطراف الليل ،

بعد ان يعود الى البيت في ساعة متأخرة جداً . وكنت قد تعودت قبلاً ، ان انتظره حتى يعود . ولكني اقلعت عن هذه العادة ، لانني تحققت ان سهري يضايقه . انه لكثير الانهماك بعمله لدرجة تفوق حد الوصف »

واذ لاحظت مدام شاكر نغمة كآبة ترن في صوت محدثتها ، قالت لها : «احقاً ما تقولين ؟»

— «نعم . كان كمال في غالب الاوقات سريع الانفعال لدى رجوعه من محل عمله ، لذلك صرت ارى ان الحكمة تقضي علي ، بأن اتركه وشأنه كلما امكن . . . ي » . . . وفجأة قطعت حديثها ظناً منها انها استرسلت فيه اكثر مما قصدت . ثم عادت تستأنف الكلام لتصحح بعض ما قالت : « اقصد بهذا . . . ان الرجل عند ما يكون منصباً في عمله يكون سريع التأثر بكل ما يحيط به »

فردت عليها مدام شاكر قائلة : «انك محقة فيما تقولين ، ولكنني لست ارى داعياً لاشتغاله بعمله في ساعة متأخرة من الليل . احقاً هو مشغول طوال النهار ؟ »

اجابتها مدام كمال بشيء من التردد : « يلوح لي من ملاحظاته التي تصدر عنه عرضاً ، انه فاشل في عمله . فقد صادف نجاحاً باهراً في البداءة ، لدرجةٍ فيها اجتذب اليه افضل عملاء ابي . ولطالما تفاخر بانه يدير عملاً ممتازاً بحذق ومهارة ، وكان يبني القصور العالية من الآمال العريضة » — وهنا خفت صوتها وتخللته نغمة من الحزن والكآبة ، وهي تقول : « . . . والآن ، كادعمله يتوقف » !

اما مدام شاكر فكان في امكانها ان تتفهم السر في كل هذا ، من تلقاء نفسها لكنها ظلت صامتة

ثم استأنفت مدام كمال حديثها : «وانا اخشى انه يقضي هذه السهرات الطويلة في عمل آخر ، لا في عمله الخاص . ولكنني حتى الآن لم استطع ان اعرف ما هو هذا العمل الآخر ، لانه يحرص على اخفاء كل اوراقه في درج مقفل »

— « اظنك تنتظرين عودته في هذه الليلة في ساعة متأخرة ! »

— «غالباً لا ،لانه سافر منذ صباح الامس الى جهة لم يعرفني بها ،واظنها الاسكندرية . لانه تعود ان يكثر من التردد عليها مؤخراً . وقد يعود الليلة في قطار الساعة السابعة مساء . واصارحك القول ، انني لا اعلم شيئاً بالمرة عن نظام حياته و برنامج اعماله » قالت هذا ثم اطرقت وجهها ، وفاهت بلهجة مرة أسيفة : «انه يغدو و يروح ولا علم لي بحركاته وسكناته» ثم مالت الى مضيفتها ، وقالت بلهجة يتخللها الغضب : «ثقي يا عزيزتي اني قد بلغت حداً اصبحت فيه لا ابالي بشيء . حتى كدت احسب ان فراقه عيد»

لفظت هذه الكلمات فانهمرت معها الدموع من عينيها ، ثم رفعت وجهها الى فوق كما لو كانت متطلعة الى شبح بعيد — كأنها ندمت على افضائها لمدام شاكر با كثر مما تروم — لكنها مع ذلك شعرت بشيء من التفريج عن نفسها بافضائها الى صديقتها ببعض مما كان يختلج في نفسها

فقالت لها مدام شاكر ، برفق وحنو : «واخشى يا عزيزتي انك قضيت الشطر الاكبر من حياتك الزوجية وانت بعيدة كل البعد عن السعادة .

ويؤسفني كثيراً ان اسمع . . . . . » — في هذه الآونة قفزت مدام كمال من مقعدها ، وشرر الغيظ يتطاير من عينيها وهي تقول بصوت تخنقه العبرات :

« سعادة ! هذه كلمة لم اتذوق طعمها منذ مدة طويلة — ولولا انيسة الصغيرة ، اللطيفة ، هذه ، لفقدت صوابي » . فاهت مدام كمال بهذه العبارة الاخيرة وتطلعت الى وجه مدام شاكر لتدرس ما انطبع عليه من ملامح

— « احقاً ما تقولين يا عزيزتي ؟ »

اما مدام كمال — وقد رفعت الآن كل كلفة بينها وبين ضيفتها — تشجعت على الافضاء اليها بما في طوية نفسها فقالت : « نعم حق وكل الحق. اتصدقينني يا عزيزتي اذا قلتُ انه وحش ؟ نعم وحش ! لا اكثر ولا اقل »

« امر غريب . ما كنت ادري ان المسألة بلغت هذا الحد »

« نعم بلغته وزادت عليه . وانا كنت حتى الآن ممسكة عن التحدث اليك عما يجرى لي في هذا المكان . فطالما وجَّه الي والى ابنتي الفاظاً خشنة فظة . . . وان ما تحمَّله جسمي من الضربات لهو اخف بكثير من العبارات القاسية الغليظة التي يرميني بها . »

فقاطعتها مدام شاكر قائلة: « هل بلغ به الامر حدَّ الضرب ؟ »

« بكل تأكيد ! »

ثم كشفت مدام كمال عن كتفها ، وقالت لزائرتها — مشيرة الى كدمات زرقاء على كتفها : « انظري آثار هذه الضربات الاليمة — كنت اود لو أُتيح لك ان تري هذا المنظر الوحشي منذ اسبوع ، ولو كنتِ قد رأيتهِ

لكنتِ تفزعين حقاً لهول المنظر . لقد كابدت آلاماً مبرحة لدرجة لم استطع فيها ان احرك ذراعي الا بكل مشقة ، وعناء ، وألم»

— «ينبغي ان تقف هذه الجرائم عند حد»—فاهت مدام شاكر بهذه الكلمات والتأثر آخذ منها كل مأخذ. ثم عادت فرددتها ثانية بلهجة التوكيد « ينبغي ان يُوضع حد لهذه الجرائم . »

فقالت مدام كمال « لو وقفت المسألة عند هذا الحد لهان الامر » . ثم انزلت ردائها عن كتفها وقالت : «انظري آثار هذه الضربات الاخرى التي تحت كتفي . » فصاحت مدام شاكر فزعة لهول هذا المنظر : « اذا كانت هذه آثار الضربات بعد مضي عشرة ايام عليها ، فما كان اشد هولها في وقتها؟ يا ترى هل من سبب لكل هذا؟ لا شك انه لمخبول العقل»

— «انه سريع الانفعال لدرجة تفوق حد التصور . فهو يستشيط غيظاً لاقل حادث فيخرج من فمه كلمات اغلظ من القذائف والحمم التي تلفظها البراكين الثائرة .

— «الكلمات الغليظة شنيعة حقاً ، ولكن اشنع منها هذه الضربات التي لا تطاق . في امكاني ان . . . . »

فقاطعتها مدام كمال قائلة «تمهلي قليلاً»—وهنا دخل غلام ووضع امامها طبقاً فيه شيء من الحلوى وكوباً من الشربات ، وبعد خروجه استأنفت مدام شاكر كلامها قائلة : «هل كانت هذه حاله منذ ان عرفتِهِ ؟»

« كلا . كان في بادىء الامر يعاملني بكل حب واحترام ولكن منذ السنة الماضية تغيرت معاملته ثم صار من رديء الى اردأ . وفي الامكان

ان نستدل على السبب ، متى ذكرنا ان معاملته القاسية لي ، بدأت منذ انفصاله عن ابي واستقلاله بعمله الخاص . ومنذ ذلك الحين ونار الحقد تغلي في صدره ، فقد بذل قصارى جهده في افساد اشغال ابي وحمله العملاء على ترك أبي والذهاب اليه . اما ابي فمن فرط طيبته ، لم يتنبه الى حيلته ، بل كان يدلّله ويعززه ، ويغدق عليه المعروف تلو المعروف ، والآن قد انقلب عليه هذا المعروف ، وعاد عليه ويلاً ووبالا . وما هذه القسوة التي أتجرع اليوم غصصها ، الا نتيجة المعاملة الطيبة التي عامله بها والدي — ان هي الا خطة مدبرة يريد كمال من ورائها ان ينتقم من ابي في شخصي . »

قالت مدام شاكر : « انه لمن المؤسف حقاً ان يتفكر الانسان في هذا الجو المفسد الذي خلقه كمال حول ابنته انيسة لتعيش فيه منذ طفولتها ».

— «هذا مؤسف حقاً . ومما يزيد الطين بلة ، والمريض علة ، انه لا يبالي بأمر ابنته . اما لو كانت هذه البنت ولداً . . . لانقلبت القصة ، لان من اسباب شراسته ووحشيته علي ، اني ولدت له انثى لا ذكراً . . . . »

— «اذا كان شديد الولع بالاولاد ، فما كان عليه الا ان يصبر ، والاولاد يأتون في دورهم . . . . . »

— « هذا هو الامر الذي يعيّرني به في وجهي ، وها قد مضى الآن عامان ونصف منذ ولادة انيسة . ولعله بدأ يظن انني غير صالحة لولادة بنين . افهمت الى أي حد بلغت بنا الحال ؟ »

فبدت من مدام شاكر اشارة تدل على مبلغ تأثرها ، فقالت :

« هذا ، على أي حال ، لا يساعد على تحسين الحال »

ثم نظرت الى الساعة التي على معصمها، فرأت منها ان الوقت مرّ سراعاً، وانه لا بد لها من الانصراف، ثم قالت: « قلت لزوجي انني سأرجع اليه بالسيارة في الساعة الرابعة، ومع ان هذه الساعة قد حانت الآن الا انني استطيع ان ابقى معك بضع دقائق اخرى. واظن انه يلتمس لي العذر في هذا التأخير متى عرف السبب »

« ارجوك يا عزيزتي ان تبقي مدة اخرى، فالوقت لم يزل بعد مبكراً على انصرافك». فاهت مدام كمال بهذه الكلمات بلهجة الاستعطاف والتوسل، مما جعل مدام شاكر تعتقد ان وراء مضيفتها اخباراً اخرى لم تخبرها بها بعد. فقالت لها صراحة:

« اعندك شيء آخر تريدين ان تفضي به الي؟ صارحيني يا عزيزتي بما عندك. فان اسرارك ستكون عندي في حرز حريز »

اما مدام كمال فقد ظهر عليها التردد والاحجام، ولكنها ملكت نفسها وتشجعت فقالت: « كنت عازمة على ان احفظ هذا السر مكتوماً عنك. اما الآن وقد طلبت اليّ ان ابوح به اليك، فاسمعيني . . »

فاصغت اليها مدام شاكر بكل انتباه، متوقعة ان تسمع أشرّ الاخبار، ثم قالت: « تكلمي يا عزيزتي من غير حرج »

— « ان اشرّ ما في المسألة هو انني مقتنعة انه . . . . . امرأة اخرى »

فصاحت مدام شاكر « يا للهول، وكيف عرفت ذلك؟ »

« لست واثقة كل الوثوق من هذا، ولو ان لدي اسباباً قوية تؤيد اعتقادي. ان عبارتين صدرتا عنه مؤخراً تؤيدان هذا الاعتقاد. وزاد على

ذلك بأن هددني مرة بان يحضر امرأة لتسا كنني في هذا البيت . ومنذ بضعة ايام ، رأيت في احد الكتب التي كان عاكفاً على قراءتها في السهرة ، صورة فتاة ، وتحت الصورة كلمات تودد ومحبة ، ممهورة بامضائها . وليس من المستغرب قط ان يأتي بمثل هذه الفتاة يوماً ما الى هذا البيت »

— « لا حاجة بي يا عزيزتي الى ان اخبرك ، انني اتجرع غصص الالم والشقاء مما اسمعه الآن . وانا آسفة انني عاجزة عن ان امد اليك يد المساعدة في هذا الباب . ولكن شيئاً واحداً استطيع ان اعمله لك »

فسألتها مضيفتها بكل تلهف وشوق : « وما هو ؟ خبريني ؟ »

«في امكاني يا عزيزتي ان اصلي لأجلك . امتعودة انت على الصلاة ؟»

فجأةً لمحت مدام شاكر على وجه محدثتها ملامح ، استدلت منها على ان كلماتها مست وتراً حساساً في قلبها . فاجابتها بحماس : « نعم انا متعودة على الصلاة . في اوقات بؤسي و بلواي ، كنت اجد الملجأ الطبيعي لي في الصلاة . وحينما اصلي ، انظر الى الله نظرتي الى الأب المحب ، الذي يشفق على اولاده . وقد تعلمت هذه الحقيقة ، لما كنت طالبة في مدرسة الامريكان باسيوط . حيث قضيت عامين فقط . ومنذ ذلك الوقت ، وانا احتفظ بالكتاب المقدس عندي ، ولو انني اخفيه عنه . ولا حاجة بي ان احدثك عن الفزع الذي استولى على كمال يوم أن اكتشف هذا الكتاب بين امتعتي »

— «ما الذ هذا على مسمعي . لم يخطر لبالي قط انك قضيت عامين في اسيوط . فالصلاة اذاً ليست امراً غريباً عليك . فلنسجد الآن سوية لنصلي»

* * *

لم تمض عشر دقائق على انصراف مدام شاكر، حتى عاد الرجل الى البيت

— «ما زلتِ الى الآن تلعبين بهذه الطفلة؟ الم تنم هي بعد؟» هذه هي الكلمات الغليظة الجافة، التي انبعثت كالرعد من حنجرة كمال، حالما دخل البيت مبكراً ساعة عن الموعد المنتظر

امام فظاظته لم يسع زوجته الا أن تخفي عنه حقيقة الامر، فقالت «لقد البستها احسن هندام، على امل انك تود أن تراها على أحسن حال وفي اجمل سربال»

فرد عليها متهكماً، وهو ينزع طربوشه ويخلع ياقته: «وباية مناسبة البستِها احسن لباس؟؟؟ أعندكِ طعام معد؟ قدميه اليّ حالاً لاني لم اذق طعاماً منذ الظهر.»

فقالت وهي خارجة من الغرفة — تاركة سؤاله الاول بغير جواب — «سأخبر الطباخ ان يعد الطعام في اقرب وقت.»

قضت مدام كمال فرصة تناول الطعام، قلقة متبرمة، وهي مضطرة ان تستمع لسلسلة تشكيات كان زوجها يقذفها من فمه، عما صادفه من الخيبة والفشل في الايام التي قضاها خارجاً عن داره. وكانه لمح الآن شيئاً غريباً، فاستشاط غيظاً، وحملق بعينيه، وقال مرعداً مبرقاً «وما هذه الالعوبة التي اراها امامي؟ من اشتراها؟ أنتِ؟»

اما الزوجة المسكينة، فمن شدة فزعها، كادت تجاوبه بالايجاب،

ولكنها خشيت ان يدخلها هذا الجواب في مأزق حرج ، فأجابته « زارتنا اليوم ضيفة كريمة . »

« ومن هي ؟ »

مرة اخرى خطر لبالها الا تصارحه بالحقيقة ، ولكنها صممت على ان تقول الصدق ، فاجابته : « سيدة جاءتنا ، واحضرت معها لعبة لانيسة. الا يعجبك هذا ؟ »

« بلى . ولكن من هي ؟ أهي احدى قريباتك ؟ »

مرة اخرى انفتح امامها باب الهروب من قول الحق ، ولكنها صممت ايضاً في قرارة نفسها على الا تقول الاّ الحق ، فأجابته بكل ثبات «كلا» !

فسألها متبرماً ضجراً « اذاً من هي ؟ »

اما زوجته ، فقد انتصبت أمامه ، وتفرست فيه ، متأهبة لكل ما يأتيها منه ، وقالت بثبات : «هي مدام شاكر» !

فقال مزمجراً كالاسد « مدام شاكر ! ومن تكون تلك المرأة ؟ هل تجاسرت ان تدخل بيتي مرة اخرى ؟ اما آن لمثل هذه الطفيليات الدنيئة ان تلزم عقر دارها ، فلا تتدخل في شؤون غيرها ؟» ثم بلغ به التهيج حداً خطيراً فقال : «وما العمل بهؤلاء المتطفلين الذين يقتحمون بيت المرء في غيبته .فبأي وجه جاءت هذه المرأة الى بيتي ؟ يالها من متطفلة ، تأتي الى بيتنا بغير دعوة منا . أما لهذا الليل من آخر ؟» . وهنا لوح فوق رأسها بقبضة يده مهدداً « ألم اخبرك منذ مدة مديدة ألاّ تفتحي باب بيتك لمثل هذه المرأة ؟ وفوق ذلك فهي مسيحية،وها قد أصبحت لا اطيق الآن تدخل هؤلاء الناس في شئوننا.

اياك ان تنسي ان تخبر بها ، انها لو جاءت الينا مرة اخرى لاوردناها حتفها .. هل تنسين ؟ ! »

اما هي فنظرت اليه بكل هدوء متمالكة نفسها بكل قواها ، ثم قالت : « تكلم كلاماً معقولاً . اتظن حقاً انه من الممكن لي ان اغلق الباب في وجه سيدة ؟ » اما هو فاعتبر هذه الكلمات تحدياً له من زوجته ، وقبل ان تتاح لها فرصة تدافع فيها عن نفسها ضرباته ولكماته ، صفعها بيده على خدها الايمن صفعة قوية اسقطتها الى الارض . ثم صاح بها قائلاً : « خذي هذه مني الآن عساك ان تجاوبيني مرة اخرى بمثل هذه الصورة ! ! »

سمع الخادم رنة هذه الصفعة وصوت الصياح الذي انبعث من الزوجة المسكينة التعيسة ، فجاء من المطبخ ووقف على باب الغرفة ، يسمع شهيق تلك السيدة ، وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى ، ولكنه تراجع الى الوراء مختفياً ، اذ سمع صياح التهديد ينبعث من سيده .

اما الزوجة التعيسة ، فقد استلقت على الخوان ، مغطية وجهها بيديها ، وهي تجهش بالبكاء ، من غير ان تفوه بكلمة

اما هو ، فقد ظل يغدو حولها ذهاباً وجيئة ، واخيراً قال لها « اخرجي حالاً يا بنت ال... » . واذ قامت تلك المسكينة ، تجر اذيال البؤس والشقاء ، دفعها الى خارج الباب ، بلكمة شديدة على رأسها . ثم مال الى الارض والتقط الالعوبة ، والقى بها على الارض محطماً اياها شر تحطيم .

وبعد ان هدأت ثائرته ، جلس متمدداً على احد المقاعد ، يتلهى بقراءة بعض الجرائد

الفصل العاشر

في صباح احد الايام ، مضى كمال ، على خلاف عادته ، الى دكان الحلاق ، وقد كان متعوداً ان ينجز هذه المهمة في المساء ، قبيل رجوعه الى البيت . لكنه في هذا اليوم ، كان مضطراً الى ان يظهر في احسن هندام ، لذلك قام بهذه المهمة في الصباح الباكر . واذ مر من الستارة المزركشة بالحرز ، المدلاة على باب الدكان ، وجلس في احد المقاعد منتظراً دوره ، لاحظ ان العمال الثلاثة الذين في ذلك المحل ، يتفرسون فيه بامعان . فتوهم لاول وهلة انهم عالمون بما سيصادفه في هذا اليوم . ولكن الامر كان على خلاف ما اعتقد . لان اولئك العمال تفرسوا فيه ، إذ رأوا فيه شخصاً غريباً لم يدخل محلهم من قبل . والظاهر انه غيّر حلاقه المعتاد ، مخافة ان يحرجه بتوجيهه اليه اسئلة فضولية ، لانه كان ملماً بجميع شؤونه الخاصة

اما عن السبب الذي حمل كمالاً على ان يكون متوتر الاعصاب في هذا الصباح ، وان يتهرب من الاشخاص الذين يعرفونه ، فسوف يتضح لنا فيما بعد

بعد ان قلب كمال صفحات احدى المجلات العربية بضع دقائق ، اخرج ورقة من جيب صدرته ، وفضها ، ووضعها فوق المجلة ، وصار يردد تلاوتها حتى المرة الثامنة ! واليك ما قرأه في هذه الورقة :

«تحريراً في ٥ ذي القعدة عام ١٣٤٨ هجرية

انا زكي بيومي محضر المحكمة الشرعية الكلية بالقاهرة اعلن كمالا افندي السيد بان القضية (رقم ٦٨٤٣ — ١٤) التي بينه بصفته مدعى عليه ، وبين حرمه السيدة ثريا بنت

السيد عبد المغيث بصفتها مدعية — تلك القضية التي نظرت امام المحكمة الشرعية الجزئية بالعباسية بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٣٤٨ هجرية والتي صدر فيها الحكم لصالح المدعية بتطليقها من زوجها والزامه بنفقة شرعية ، ستنظر استئنافياً امام هذه المحكمة بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٤٨ هجرية . في الساعة التاسعة صباحاً ، لذلك نعلنكم بالحضور في اليوم والساعة المعينين »

يا نفسُ أجملي جزعـا ان الذي تحذرين قد وقعا

وهكذا كان ولا راد لقضاء الله . فكمال الذي كان معتداً بنفسه ، غير مكترث للناس وانتقاداتهم ، اضحى في هذا الصباح حائراً مضطرباً . وقد مضى الآن شهران أو يزيد ، مذ ان نُظرت قضيته امام المحكمة الشرعية الجزئية بالعباسية ، وحكم فيها ضده . فكان من الطبعي ان يستأنف الحكم لسببين : اولهما ليسترد كرامته التي امتُهنت وصيته ، الذي ثُلم . وثانيهما — انه كان مطالباً باذخال الاولاد تحت وصايته — وان كان أحدهما لم يولد بعد . الا انه قبل كل شيء كان يؤمل انه سيجيء ذكراً

لم يقع منه ذلك الاعلان موقع الدهشة والاستغراب ، لانه كان مستعداً للدخول في المحاكمة ، والانتهاء من هذه القضية . ولكن الذي حيره وأزعجه ، خوفه من الفضائح التي ستنجلي عنها هذه القضية في هذا الصباح ، لان خفايا حياته الزوجية ستفضح امام جمهور المتقاضين . وكان يخشى من ان بعض هذه المعلومات ، يتصل خبرها بمراسلي الجرائد ، فيتلقفونها وينشرونها على الملأ . فلم يكن كمال والحالة هذه في موقف يحسد عليه . ومما زاده فزعاً واضطراباً ، اعتقاده ان قريبه شاكراً سيكون حتماً هناك في المحكمة ، لانه اخذ علماً بالقضية من زوجته ، أو من أي مصدر آخر . على ان الامر الذي كان يقلقه أكثر

من سواه ، لم يكن علم شاكر بكل المخازي التي جرت بينه و بين زوجته في عشهم المتهدم — واللوم الاكبر فيها واقع عليه — بل ان قريبه شاكر كان يسدي اليه النصح مراراً وتكراراً بان يقلع عن طرقه. ولطالما حذره من انه اذا استمر على هذه الحال ، فان عواقبها الوخيمة تجر عليه شر و بال . فما اصدق فراسة شاكر وما أبعد نظره ! ! وفوق ذلك فان تفكره بعمله الفاشل كان يقلق باله و يقض مضجعه ، لان الازمة المالية كانت مستحكمة الحلقات عليه في هذا الوقت ، الذي صار فيه مضطراً الى ان يدفع مصروفات هذه القضية فوق ما تجره عليه من نفقات عتيدة

هذه بعض الهموم التي ازدحم بها فكر كمال ، وناء بها كاهله ، وهو جالس في كرسيّ الحلاق متطلعاً الى ما في السقف من رسوم

بكل سرعة انجز كمال تلك المهمة التي قصد دكان الحلاق لاجلها ، ثم خرج قاصداً دار المحكمة الكلية الشرعية ، وكانت الساعة الآن قد بلغت التاسعة والنصف . و بما ان قضيته كانت ستعرض على المحكمة في الساعة العاشرة ، لذلك بقيت امامه ثلاثون دقيقة استحسن ان يقضيها مع محاميه قبل حلول الموعد الذي تنظر فيه قضيته

اما دار المحكمة ، فكانت تعج بجمهور من أرباب القضايا. وحالما وصل كمال الى دار المحكمة ، اجتاز ممراً ضيقاً تجاه قاعة الجلسة ، ومن خلال باب القاعة الذي كان وقتئذ مفتوحاً ، استطاع ان يرى رئيس المحكمة جالساً على منصة القضاء ، موجهاً كلاماً لاذعاً الى احد المحامين لانه بنى دفاعه على

أسباب واهية ، اعتبرها رئيس المحكمة مضيعة لوقته . فاستدل كمال من هذا ، على أن رئيس المحكمة حاد المزاج ، فلم يستبشر بذلك خيراً

واخيراً التقى بمحاميه الاستاذ محمد عزت في غرفة المحامين ، وقضى معه ثلث ساعة يحدثه في قضيته عن أشياء سبق له أن حدثه عنها مراراً

ثم قال الاستاذ محمد عزت لموكله مؤكداً : « عليك قبل كل شيء أن تكون حريصاً يقظاً ، فلا تسمح لاحد ما ، بأن يعبث بك ، أو أن يوقعك في شراكه . فاذا ما وُجه اليك سؤال ، لا يهمك أن تجاوب عنه ، فما عليك الا ان تتطلع اليّ . أو ان تحول السؤال اليّ ما لم ترَ مني عبوسة تدلك على عدم رغبتي في الاجابة عنه »

في هذه الآونة ، سُمع وقع اقدام ، دل على ان المحكمة فرغت من القضية السابقة لقضيته . فانتهز رئيس المحكمة هذه الفرصة وخرج من قاعة الجلسة الى غرفة الاستراحة وتبعه زميلاه . وفي هذه الفترة كان الناس يغدون ويجيئون في ساحة المحكمة . والظاهر ان كثيرين كانوا يستعدون لسمع هذه القضية التي جاء دورها

اما كمال ومحاميه ، فقد دخلا وجلسا جنباً الى جنب في المقاعد الامامية . والى الآن ، لم تكن زوجته ووالدها قد حضرا بعد ، ولكنهما قدما بعد بضع دقائق ، فأجلسا مع بعض من الاهل والاقارب في مقاعد على الجانب المقابل لكمال . اما زوجته فكانت آنئذ متحجّبة بنقاب حريري ، سترت به وجهها تماماً . وفجأة خطر لبال كمال ان ينتحل ضدها شكوى جديدة — بحجة انها كانت متعودة قبل اليوم أن تغدو وتجيء سافرةً . فاسرَّ بهذه

الملاحظة الارتجالية الى محاميه ، الذي نصح له بان يحتفظ بها حتى يأتي دورها، على ان لا يعوّل عليها كثيراً. ثم سرح كمال طرفه في جمهور النظارة ، فداخله شيء من الارتياح ، اذ اتضح له ان جلهم من رجال الشرع . وكان بين المشاهدين جماعة من المتطفلين الذين يلذ لهم سمع مثل هذه القضايا . والامر الذي دعا الى دهشة كمال واغتباطه في نفس الوقت ، انه تحقق ان قريبه شاكر ليس بموجود . ولدى تأمله قليلاً ، استنتج انه ليس من المستبعد ان يكون شاكر قد امتنع عن حضور هذه الجلسة احتراماً لشعوره . وفيما كان فكر كمال مشتغلاً بهذا الخاطر ، فُتح الباب الخلفي فظهر منه رئيس المحكمة ومن خلفه قاضي اليمين وقاضي اليسار ، ووراءهما النائب ، فكاتب الجلسة . فصاح الحاجب : «محكمة» ! فوقف الجميع وسادهم صمت رهيب ، ثم جلسوا كأن على رؤوسهم الطير

مضت فترة قصيرة كان رئيس المحكمة في خلالها يدرس اوراقاً وضعها امامه كاتب الجلسه ، و يتداول مع زميليه . و بعد ان فرغ من المداولة ، تلا ملخص القضية بصوت جهوري طنان، ذاكراً انها نُظرت اولاً امام المحكمة الشرعية الجزئية بالعباسية بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٣٤٨ هـ . وان حكماً صدر فيها لصالح المدعية ثريا بنت السيد عبد المغيث الطالبة الطلاق من زوجها كمال السيد ، بسبب قسوته عليها وسوء معاملته لها

ثم ذكر اسماء الاشخاص المطلوبين في القضية — فمثل امامه كمال وزوجته ووالدها . عندئذ طلب الى كاتب الجلسة ان يتلو الحكم الذي اصدرته المحكمة

الشرعية الجزئية ، مع حيثياته . فوقف هذا وتلاه بسرعة فائقة لدرجة ان جل كلماته مرت على رؤوس السامعين من غير ان يتفهموها .

ومن الوقائع والحيثيات الكثيرة العدد ، التي ازدحمت بها هذه القضية التي تلاها الكاتب ، يستطيع المستمع له باصغاء وانتباه ان يستخلص الآتي :

« حيث ان المدعية ، قبل ان اقدمت على رفع القضية ، ظلت عاماً او يزيد ، تعاني انواع الخسف والعذاب من زوجها . وفي مقدمة الاشياء الخطيرة التي شكته بسببها ، ضربه اياها بكل قسوة ووحشية ، ومراراً كثيرة كان يتركها بغير طعام ، وكان يمنع عنها كل الزائرات ، وكان يهددها باشنع التهديدات اذا هي ذهبت الى بيت ابيها ، وفوق ذلك فقد كان قاسياً شديد القسوة على ابنته الصغيرة . فلم يسعها والحالة هذه الا ان تلتجىء الى بيت ابيها ، آخذة معها أبنتها الصغيرة ، مصممة على الا تكون بينها وبينه اية معاملة الا عن طريق المحكمة الشرعية

وحيث ان والدها السيد عبد المغيث ، اعد مذكرة قرر فيها ، ان هذه الوقائع اتصلت بعلمه اثناء زياراته لابنته في بيتها بين حين وآخر

وحيث ان كمالا حاول ان يدفع عن نفسه كل هذه التهم الخطيرة ، بانكاره كل هذه الوقائع ، وادعائه ان الآثار التي ظهرت على جسم حرمه لم تنشأ بالضرورة عن ضربه اياها ، وانما هي آثار رضوض اصابتها من سقوطها على درجات السلم ! ! (وما سمعت هذه الكلمات الاخيرة حتى انبعثت ضحكة سخرية واستهزاء من جمهور المشاهدين)

بنـــاء عليه

حكمت المحكمة الشرعية الجزئية بالعباسية حكماً مشمولا بالنفاذ ، بتطليق ثريا من زوجها ، واعطائها نفقة شرعية قدرها خمسة جنيهات في الشهر . وبعد النطق بالحكم اعلن الدفاع عزمه على رفع استئنافه الى المحكمة الكلية »

ختم

رئيس الجلسة

عبد القادر سرور

امضاء

كاتب الجلسة

احمد اسماعيل الطنطاوي

تحريراً بسراي المحكمة الجزئية الشرعية بالعباسية في ٢٥ شوال عام ١٣٤٨ هجرية

بعد ان فرغ الكاتب من تلاوة هذا الحكم وحيثياته ، جلس . فطلب رئيس المحكمة من السيد عبد المغيث ان يمثل امامه ، فامتثل

قل : « اقسم بالله العظيم ان اقول الحق ، وكل الحق ، ولا شيء الا الحق » . فأقسم

— « سمعت الآن حيثيات الحكم ، الذي صدر في ٢٥ شوال عام ١٣٤٨ هـ ، فهل تصادق على ان وقائعه صحيحة ؟ »

« نعم . اصادق »

« هل تقرر بالنيابة عن ابنتك ، انها مصممة على طلباتها ؟ »

« نعم اقرر »

« يا كمال السيد ، تقدم الى الامام ، واحلف اليمين » . فامتثل واقسم .

— « على اي اساس بنيت استئنافك لهذه القضية ؟ »

فاستجمع كمال كل قواه وطفق يقول بلهجة خطابية : « يا صاحب الفضيلة ان لي اسباباً كثيرة بنيت عليها استئنافي » — وهنا مال القاضي على مقعده الى الوراء ، رافعاً وجهه الى الفضاء .

فاستأنف كمال كلامه — مشيراً الى زوجته التي كانت وقتئذ جالسة في الصف الذي عن يمينه : « اولاً كنت اؤمل انها تندم على تصرفاتها ، وتعيد النظر في القضية برمتها ، قبل حلول موعد الاستئناف . وقد كتبت اليها فعلاً بهذا المعنى ولكني لم افز منها بجواب . والحقيقة ان اقدام زوجتي على طلب الطلاق ، قد وقع مني موقع الدهشة . فلم يخطر لبالي قط ان مثل هذا الطلب يدور بخلدها » . وفي هذه الاثناء كانت زوجته تتبادل نظرات

الاستغراب مع قريباتها — « والشيء الوحيد الذي حدث بيننا، وقد استغلته هي الى ابعد حد، هو ان خلافاً شجر بيننا في آخر ليلة قضتها زوجتي في بيتي قبل مفارقتي، وانا اعترف انني كنت وقتئذ منفعلاً، وتفوهت بكلمات قد تُحسب جافة، ولكني اعتقد ان مثل هذا الشيء التافه، يحدث مراراً وتكراراً بين زوج وزوجته، فلا يمكن ان يعتبر بحال من الاحوال اساساً لطلب الطلاق. »

فسأله القاضي بغير اكتراث « وماذا كان سبب ذلك الخلاف؟ »

فتلعثم كمال قليلاً ثم قال «ان موضوع الخلاف هو مبلغ زهيد من المال كنت محتفظاً به لغرض خاص ولما لم اجده سألت زوجتي عنه فقالت انها لا تعرف عنه شيئاً، مدعية ان الخادم هو الذي سرقه. ولكنني لم اصدقها فكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا، ان تراشقنا بالكلام القارص، لاني كنت محتفظاً بهذا المبلغ في درج مكتبي، وكنت قد حذرت عليها ان تدنو منه. »

فقاطعه القاضي قائلاً: « وهل كان الدرج مقفلاً؟ »

« إ... إ... لم يكن مقفلاً... تركته مصادفة في ذلك اليوم من غير ان اقفله. »

— « اذاً انت لا تظن انه من الممكن ان يكون الخادم هو السارق؟ »

— « إ... إ... نعم ممكن. وفي الواقع قد اعدت التفكير في الامر ويغلب على ظني ان زوجتي ليست هي السارقة. »

— « وهل ضربتها في هذه المرة ايضاً؟ »

— « لا . . . . . انا ؟ انا . . . ؟ »

فالتفت القاضي الى الزوجة ، وسألها : « هل ما يقوله زوجك حق ؟ »

— « كلا . »

قال القاضي موجهاً الكلام الى كمال : « الظاهر ان زوجتك لا تريد ان تقبل توبتك . يكفي . اقعد . » فتراجع كمال الى الوراء وجلس . ثم صاح الحاجب قائلاً :

« السيدة ثريا حرم كمال السيد ! ! » فتقدمت السيدة سافرة الوجه في هذه المرة، فاتجهت اليها الانظار، ومع انها كانت شاحبة اللون هزيلة، الا ان مسحة من الجمال الرائع كانت تعلو وجهها ، فاسترعت التفات القاضي نفسه — ولعلها احسنت بمثولها امام المحكمة سافرة — فادرك جمهور الحاضرين الباعث الذي حمل كمالاً على ان يمانع في تطليق زوجته اياه .

بعد الاسئلة التمهيدية المعتادة قال لها القاضي : « قولي ما تعرفين عن اسباب شكواك . »

فبدأت تسرد التفصيلات بكل دقة ، ولم يفتها أن تذكر ان زوجها منذ البداءة رفع عليها يده بالضرب مرات عديدة . وفي آخر مرة أمعن في ضربها لدرجة لم تجد فيها وسيلة للتخلص منه الا بالهرب والاحتماء في غرفة وقفل الباب على نفسها . و بعد نصف ساعة، اذ تبين لها انه خرج من الدار، ارتدت بعض ملابسها وذهبت الى بيت ابيها ، ولم تعد منه الى بيت زوجها حتى هذه الساعة . وفي ختام كلامها ، اوضحت بعض الحوادث المشار اليها في تقريرها الذي قدمته الى المحكمة . فلم تأخذها الشفقة على زوجها عند ذكرها

الاهانات التي وجهها اليها ، والظلم الفادح الذي عاملها به ، اذ منع عنها زيارة صديقاتها ، وتهديده اياها مراراً وتكراراً ، باحضار امرأة اخرى تسا كنها في بيتها ، ناهيك عن القسوة التي كان يعذب بها ابنته انيسة الصغيرة

فاهت مدام كمال بكل هذه التفصيلات ، بكل ثبات ، و بلغة عربية فصحى ، و بلهجة موسيقية مؤثرة تركت اثراً فعالاً في اذهان المتعلمين من الحاضرين ، وملكت على رئيس المحكمة وقضاتها كل مشاعرهم ، مما جعلهم يعتقدون في قرارة نفوسهم ، انه حرام ان تعيش سيدة مهذبة رقيقة الشعور مثل هذه ، مع رجل مثل كمال ، يعيش في مستوى سافل

ثم سمعت المحكمة شاهدتين احضرتهما المدعية : احداهما جارة تسكن في طابقٍ مقابل الطابق الذي كان يسكن فيه كمال مع زوجته . فكان يتاح لها والحالة هذه ان تسمع ما يحدث في بيت كمال . والشاهدة الثانية هي اخت ثريا التي اتفق لها ان زارتها مرتين اثناء تعذيب زوجها لها .

اما كمال فلم يستطع ان يحضر من الشهود غير حسين الطباخ ، بعد ان رشاه بمبلغ من المال ، ليؤدي شهادة مزورة لصالحه ، و بما ان هـذا الشاهد المأجور لم يكن متعوداً على مثل هذا الموقف ، لذلك لم يستطع ان يواجه وابل الاسئلة التي كانت تنهال عليه من القضاة ومن المحامي ، ففشل في تأدية الشهادة على الصورة التي لقنه اياها سيده ، اذ تلعثم واضطرب . وفاه بأقوال يناقض بعضها بعضاً . فانتهز محامي المدعية فرصة انهزام هذا الشاهد ، فهزأ منه وسخر به ، وجعل منه اضحوكة لجميع الحاضرين — ما عدا كمال وجماعته —

فأذهبوا عن نفوسهم بعض التأثيرات المؤلمة ، التي تركتها في أفئدتهم تلك القصة المشئومة

ثم جاء دور المحاميين فأدلى كل منهما بما عنده .

الآن قد بان الحق وحصحص امام عيون القضاة . واما الحاضرون ، فلم يخامر احدهم شك في معرفة اتجاه الحكم . ولكن المسألة كانت قاصرة على تحديد النفقة التي كانت المحكمة الجزئية قد قررتها بمبلغ خمسة جنيهات شهرياً لمدة سبع سنوات ، حتى تنتهي ابنتها من دور الحضانة . فقامت حول هذه النقطة معركة كلامية حامية ذهبت كلها ادراج الرياح لان القضاة صاروا مقتنعين في اعماق نفوسهم بان المحكمة الجزئية انصفت فيما حكمت ، فلم يسعهم ألا تأييد حكمها الابتدائي وتكليف كمال بان يدفع ثلاثة جنيهات اتعاب محاماة.

بعد ان انتهت هذه القضية، التي استغرقت ساعة وخمس دقائق، لم يبق سوى امرين — اولهما ان يصدّق كمال على اقواله بامضائه. وثانيهما: ان يدفع اتعاب المحاماة التي قضت بها المحكمة .

وفيما هو راجع بسيارته الى محل عمله ، شعر انه لا بد له من الترويح عن نفسه ، بعد كل هذه التأثيرات التي عبثت به في المحكمة ، فكان ينفخ بوق السيارة بكل قوة مراراً وتكراراً ، ومن غير داع . وصار يسوق سيارته بغاية السرعة في الشوارع المزدحمة ، فاعترضه جنود حركة المرور غير مرة .

وما حل الغروب ، حتى ابتدأ يفكر جلياً في ما آل اليه موقفه . ومما ابهج خاطره ، ان قريبه شاكراً لم يحضر المحكمة ، وان اسمه واسم زوجته لم

يُذكرا اثناء المحاكمة ، مع انه جُرّب مرة ان يذكر اسم مدام شاكر باعتبار كونها عاملاً من عوامل النزاع القائم بينه و بين زوجته ، الا انه تغلب على هذه التجربة ، وتحاشى ذكر اسمها ، فسُر لذلك سروراً كبيراً . وفي هذه الآونة كان يحسد نفسه على هذا الشعور الطيب الذي ملأ الآن جوانحه ، فكان يسائل نفسه : « يا ترى اسائر انا الآن في طريق الاصلاح وانا لا ادري ؟؟؟ ولكن ما فائدة تفكيري في اصلاحي الآن ؟ ليس هذا وقته»

على ان اهم امر لديه الآن ، هو ان يعالج حل هذه المعضلات الجديدة التي احاطت به في موقفه الحاضر

الفصل الحادي عشر

استيقظ كمال من نومه مذعوراً ، و بحركة عصبية ألقى عنه الغطاء الخفيف الذي كان مدثّراً به ، وقفز من سريره ، واضاء مصباح غرفته ، لانه شعر كأن الطقس حار ولكنه لم يستطع ان يهتدي الى السر في ذلك ، لانه كان وقتئذ في شهر ديسمبر حين يكون الشتاء زمهريراً .

و بعد ان وقف قليلا امام المرآة ، خرج الى الشرفة الخارجية ، حيث كان ميزان الحرارة معلقاً على الجدار ، فأتى به الى غرفة نومه ، وتفرس فيه على ضوء المصباح ، ولشدة دهشته اتضح له ان درجة الحرارة ١٥° سنتغراد، مما دله على ان الطقس بارد جداً . فوضع الميزان جانباً ، و بدأ يسائل نفسه : « لِمَ أشعر الآن بهذه الحرارة ؟ » و بعد ان اروى غليله بقليل من الماء ، اطفأ النور ، واستلقى على سريره . وعبثاً حاول ان ينام ، فقد كان يتقلب على جنبيه عابثاً بالغطاء لأن النوم هجر اجفانه

ولكن ارقه لم يكن بالامر المهم الذي اقلق خاطره على مضجعه ، لانه كان متعوداً عليه في ليال كثيرة قضاها ساهراً ساهداً في الخلاء مع بعض رفاقه . وانما الذي أقضّ مضجعه ، خوفه من انه يكون قد اصيب بنوع من الحمى، لانه كان في ظرف يحتاج فيه الى كل دقيقة من وقته ليقضيها في عمله ، سيما وانه منذ مدة وجيزة، طرد العامل الميكانيكي لانه لم يقو على دفع مرتبه . فخيل اليه انه لو صح اعتقاده، وظهر انه مريض فعلاً، واضطر الى التغيب عن عمله، لفشل عمله وصار مآله الى الخراب . وهنالك ما هو ادهى وامر — ذلك

انه مطالب بدفع تلك النفقة الشهرية التي قضت عليه بها المحكمة الشرعية وهكذا ظل عقله في سورة هذه الحمى ، مرتعاً للهواجس المخيفة ، والخواطر المفزعة . فصورت له الاوهام ان الدهر بدأ يخني عليه بكلا كله فيسحقه تحته

وهنالك امر آخر ، ارتسم امام عينيه في شكل مرهب ، هو ذلك الخبر الذي اتصل به اليوم ، ومفاده ان احد عملائه الذي تعامل واياه مدة طويلة ، سحب ثقته منه ، وكفّ عن معاملته

والظاهر انه نام نوماً مزعجاً في الساعات القليلة التى سبقت الصباح فتمثلت له خواطره في شكل وحوش مفترسة تتحفز لافتراسه ، وخُيِّل اليه انه يتخبط بين صخور كبيرة مجاهداً جهاداً عنيفاً ليتخلص من الوحوش الضارية التي تتعقبه في كل خطوة ، فلم يكد ينجح في التغلب على احدها حتى هاجمه آخر اشد منه فتكا ، من ناحية لم يكُ يدريها . وفي اللحظة التي استجمعت فيها الوحوش كل قواها لتنقضّ عليه دفعة واحدة ، استيقظ من نومه فزعاً والعرق يتصبب من جسمه .

كان بوده لو قضى ذلك اليوم في البيت لانه مُتعَب مكدود ، لكنه ذهب الى شغله ، وانفه راغم . وفي طريقه ، ذكر والفزع يملأ نفسه ، ان عوض الله كان بانتظاره ، ليذهبا معاً الى اجتماع في ذلك المساء . لكنه لم يعدم حيلة يتخلص بها منه . فقر رأيه على ان ينتحل من مرضه عذراً

والظاهر ان مجرى حياته بدأ يتخذ منحىً جديداً . وإلاَّ فلِمَ غيَّر اعتقاده في تلك التجارة الغير المشروعة التي انغمس فيها سابقاً مع عوض الله وعصابته ؟ الم تدرّ عليه ربحاً جزيلاً فيما مضى ؟ بلى . اما زالت الى الآن

تجارةً مكسبةً له ؟ هذا امر مشكوك فيه ، لانه على قدر ما اصابه في هذه التجارة من ارباح ، صادفته خسائر ، ولكن هذا السبب لم يكن كل شيء لديه، لكنه أضحى منذمدة ليست بطويلة، قلق الفكر،مضطرب البال، تنتابه الوساوس من جراء هذه التجارة ، ولعله بدأ يدرك انه على رغم ما فيها من ارباح ، فانها محفوفة بالمكاره والاخطار . الا ان هذه المخاطر لم تكن فيما مضى ماثلة امام عينيه بالصورة التي اضحى يراها عليها الآن ، وربما كان في الماضي اكثر استعداداً للمقامرة بمركزه والمغامرة براحته منه في هذه الآونة . فقد تغيرت نظرته الآن تغيراً كلياً . لانه صار يحس في سويداء قلبه ان البوليس وراءه بالمرصاد.ومع ان مخاوفه هذه لم تكن مبنية على اساس متين ، الا ان نفسه لم تفتأ تحدثه عنها باستمرار . وكان قد صارح عوض الله فيما مضى ، بما ينتابه من المخاوف والهواجس ، لكن عوض الله نجح بعض النجاح في تهدئة روعه ، والترويح عن نفسه

حاول كمال في هذا الصباح ، بنوع خاص ، ان يركز فكره في عمله لكن محاولاته ذهبت ادراج الرياح ، لانه كان يشعر بخمول في جسمه وخمود في عزيمته، وجمود في فكره. وسرعان ما دخل عليه عوض الله باسلوبه الاخّاذ ، حتى ادرك كمال ان العذر الذي عزم على ان ينتحله للتخلف عن اجتماع ذلك المساء ، لم يعد يقوى على صد تيار حجج عوض الله الجارفة . فأذعن له بغير توقف . والظاهر ان ضعف كمال الجسدي في ذلك اليوم ، كان مصحوباً بهبوط في عزيمته . فما كاد عوض الله يمضي عنه ، حتى عاد باللائمة على نفسه بسبب سرعة استسلامه له وانصياعه لارادته. ومهما يكن من الامر

فلم يبق امامه مفر من الذهاب الى الاجتماع . وعلى كل ، فهو اجتماع خطير ، قد يأتيه من ورائه ربح غير يسير .

في ذلك اليوم ، ترك كمال محل عمله في الساعة الثامنة مساء ، وعوامل الفزع والقلق تنتابه بصورة لا عهد له بها ، قاصداً ملاقاة أحد أفراد تلك العصابة التي سينعقد اجتماعها بعد نصف ساعة . فذهبا سوية الى احد المقاهي في قسم الازبكية ، وهناك طلب زميله اطباقاً من الطعام الشرقي الذي يتخلّله كثير من البهار المحرض للشهية . اما كمال فلم يستطع ان يشاطر زميله لذة هذا العشاء ، لان شهيته كانت معدومة في ذلك المساء ، فاكتفى بشرب فنجانين من القهوة مع قليل من الحساء .

وبعد قليل وصلا الى مكان الاجتماع الذي سينعقد ليلتئذ في زقاق ضيق في شارع كلوت بك ، وكانت الانوار فيه ضئيلة ، والممرات المؤدية اليه قذرة ، مزدحمة باكداس من الاجسام الآدمية الثقيلة . واذ صعد كلاهما على درجات سلم البيت ، همس كمال في اذن زميله : « أليس ذلك الرجل الذي رأيناه في مدخل الشارع ، جندياً جديداً غير الذي تعودنا ان نراه منذ ليلتين ؟ » فوافقه زميله قائلاً : « الحق معك فهو جندي جديد لم نره من قبل ، ولكنني انصح لك بعدم الاكتراث له ، لان امره لا يهمنا ، كما ان امرنا لا يهمه . اذ من المعلوم ان رؤساء البوليس يغيرون جنودهم بين فترة واخرى ، ليجربوهم وليخففوا من سماجتهم عن الناس جهد المستطاع »

— « فليكن ! ولكن ألم تلاحظ انه سلّط علينا نظرات حادة ، حين مررنا به ؟ »

— لا . لا . لا حق لك في ذلك، فلست اظن انه اعارنا اي التفات . والظاهر «يا عزيزي ان اعصابك متوترة . كن رجلاً يا شيخ، وواجه الموقف بثبات ، فها قد وصلنا هنا ولا يمكننا النكوص على أعقابنا خاسرين»

جرى هذا الحديث بين كمال وزميله ، وهما واقفان على « بسطة » الدور الثاني . ثم ضغط كمال باصبعه على « زر » الجرس الكهربأي على الطريقة المعهودة — رنتان قصيرتان تعقبهما رنة طويلة — علامة على ان جماعة من الرفاق ينبغون الدخول . وفي لحظةٍ فُتح لهما الباب . فدخلاه واجتازا ممراً طويلاً ضيقاً ثم وجدا سائر أفراد العصابة مجتمعين حول مائدة، وكؤوس الخمر موضوعة امامهم ، وبعض الزجاجات الفارغة ملقاة حواليهم ، مما دلهما على ان هؤلاء المجتمعين كانوا قد سبقوهما الى مكان الاجتماع قبل حلول موعده ، وتجرعوا معاً اقداح الخمور . فحيوا كمالاً وزميله تحية حارة حماسية ، وخاطبهما عوض الله قائلاً : «اهلاً وسهلاً . تعاليا وشاطرانا أمجاد هذا الحظ» . واذ رفع قدحاً في يده قال : «هذه خير وسيلة لطرد البرد من الجسم» . ثم وجه الخطاب الى كمال قائلاً: «مالي اراك يا كمال شاحب اللون ، مكدود الجسم ، فاتر العزيمة ؟ »

— « الم أقل لك في الصباح ان صحتي ليست على ما يرام ؟ »

« عفواً ! فقد سهي عليَّ . خذ مني هذه الكأس وأنا الكفيل برد صحتك اليك » . ثم صب الخمر واترع الكأس ، وقدمها اليه . اما كمال فلم يكن ممانعاً في قبولها ، لانه كان شاعراً بفتور في عزيمته ، وخمول في جسمه ، فكان يرحب باي علاج يظن انه يزيل عنه ما يشكو منه . فامتثل لنصح

زميله وهكذا صار كمال واحداً منهم وعما قريب ستلعب بنت الحان دوراً هاماً بعقول هؤلاء المجتمعين الماجنين ! !

بعد ما صرفت هذه الجماعة بضع دقائق في التحدث عن بعض الشئون العامة ، بشيء كثير من الغبطة والانشراح ، وقف زعيمهم فكري افندي جابر ، وقرع على الطاولة بقطعة حديد لولبية كانت على مقربة منه ، وقال : « يا اخوان ! هلموا الآن الى العمل بغير توان ، فالوقت يمر سراعاً . فلننتهز ما فيه من دقائق وثوان »

فانتظم اجتماعهم ، بعد ان تكامل عقد ثمانيتهم ، ثم استأنف زعيمهم القول : « ايها الاخوان ، اسمحوا لي قبل كل شيء ، بان انبئكم بنبأ غير سار . . . » . ثم نفض رماد سيجارته في «منفضة» على الطاولة ، وعاد الى الكلام : «لست ادري ما اذا كان قد اتصل بعلم الكثيرين منكم ، ان « البضاعة » التي هرَّبناها الى الشاطىء الغربي لدمياط ، قد صادرها رجال البوليس في طنطا . وما كان في استطاعة رجال البوليس ان يصادروها لو لم يكونوا محاطين علماً بامرها . ومما يؤسف له كثيراً ، ان رجال البوليس القوا القبض على جميع الرجال الذين حملوا هذه البضاعة الى طنطا » . فتطلع احدهم الى الآخر ، واقسم بعضهم أغلظ الايمان .. ثم طفق الرئيس يقول : « نعم . نعم . أنا أقرر لكم ، أن واحداً منهم لم يفلت ، والشيء الغريب ان الجرائد لم تنشر عن هذه المسألة الهامة سوى خبر مقتضب جاء في جريدة البورص منذ ثلاث ليال مضت — مفاده ان رجال البوليس القوا القبض على جماعة

من المهربين في طنطا . والآن . . . اتعلمون ممن تؤلف هذه الجماعة ؟ من حامد أفندي زميلنا وجماعته . . . ! ! ! »

فانبعثت من أفواه بعض الحاضرين اقسام مغلظة ، وفاه البعض الآخر بعبارات تأفف واستنكار . أما كمال فكان منتحياً مكاناً بعيداً في الغرفة ، وملازماً الصمت ، لكنه لم يستطع ان يتمالك نفسه من التأثر بهذه الحالة . فصمم في قرارة نفسه على ان يطلّق هذه الجماعة منذ الليلة طلاق بائناً على رغم علمه بأنه سيعاني مشقة كبرى في هذا الامر ، لانه لا يقدر ان ينفض يده من اعمالهم ، الا بعد مضي وقت غير يسير . لكنه بالرغم من هذه الصعاب ، صمم على ألا يدع اي حائل يقف في سبيل هجره هذه الجماعة ، لانه لم يعد بعد مستعداً لمواجهة المخاطر الجسام المحفوفة بها هذه التجارة المحرمة .

وما كادت هذه العزيمة تستقر في قرارة نفسه ، حتى سمع فكري يقول بلهجة حازمة مؤثرة :

« انا اعتقد يا اخوان ، ان في جماعتنا جاسوساً ، يعمل ضدنا في الخفاء . وفي امكاني أن أقيم الحجة على ذلك . و يغلب على ظني ، ان هذا الجاسوس موجود بيننا الآن » . فاه فكري بهذه العبارة الاخيرة ، وضرب على الطاولة بقبضة يده ضربة قوية تناثرت معها اقداح الخمر .

لم يتفوه احد من المجتمعين ببنت شفة ، لان كلا منهم حاول ان يتكلف الرزانة والهدوء جهد المستطاع ، وتبادل بعضهم الابتسامات التكلفية الدالة على البراءة والثقة بالنفس . ثم طفق زعيمهم يحدثهم عن الادلة التي بني عليها اعتقاده بأن بينهم جاسوساً . فاصغى اليه الجميع بكل انتباه ، ثم تنفسوا

الصعداء حالما اشار زميلهم بيده الى رجل يوناني كانوا قد ادخلوه حديثاً الى زمرتهم ، ليكون نائباً عنهم في الاسكندرية

الى الآن لم تكن الأدلة ثابتة ، ولكنها كانت مجرد شبهات جعلوها موضوع تحقيق دقيق فيما بينهم ، مخافة ان يفتضح امرهم في القاهرة فيصيبهم ما أصاب عصابة طنطا . وفيما هم على هذه الحال ،

قال كمال : «في طريقي الى هذا المكان ، اشتبهت في حركات رجل البوليس الواقف على مدخل الزقاق ، فتقوى لديّ الاعتقاد باننا مراقَبون في هذه الليلة الليلاء»

ما كاد كمال يلفظ آخر كلمة ، حتى سُمع رنين الجرس الكهربائي على كيفية تختلف عن الكيفية المصطلح عليها فيما بينهم . وفجأة دخل عليهم الخادم ، مضطرباً من شدة الفزع ، هامساً في آذانهم بصوت متهدّج : «البوليس ! البوليس ! » وفيما هم كذلك سُمع قرع شديد على الباب الخارجي ، فاستدلوا منه على ان رجال البوليس يبغون الدخول عنوة ، فقال الخادم فزعاً : «هل أفتح ؟ هل أفتح ؟» أجابه فكري : «اياك . اياك ان تفتح ! ! » وهمس آخر : «انتظر حتى نلقي بهذه الزجاجات والاقداح والدفاتر من النافذة ! ! » وقال ثالث : «وأي خير يعود علينا من هذا ؟ ! » . وفي هذه الآونة سُمع قرع اشد من الأول ، لان رجال البوليس صاروا في هذه المرة يقرعون الباب بأطراف بنادقهم ، وهم يصيحون «افتحوا الباب ؟ افتحوا الباب ! والا دخلنا عنوةً »

قال عوض الله «انا استحسن ان نفتح لهم الباب بارادتنا ، ومتى دخلوا

نقوم لمهاجمتهم . وانا واثق انهم لن يغلبونا ، اذا واجهناهم بعزيمة تفل الحديد، وقلوب دونها قلوب الاسود ، وشجاعة الأبطال الصناديد»

فجاوبه احدهم : «هذه فكرة جميلة ، وانا واثق انهم لن يطلقوا علينا الرصاص»

وفي هذه الآونة ، شرع رجال البوليس يكسرون الباب . اذ ألقوا عليه أحمالاً ثقيلة كادت تهشمه ، فصاح عوض الله : «هيا يا قوم ، هلموا نستعدّ لمهاجمتهم . هوذا الباب انفتح أو كاد . . . هيا . . . ما علينا الا ان نتصايح ونعربد . هيا نتسلح بالكراسي ، والزجاجات ، والطاولات. استعدوا فالملحمة قريبة» !! صاح عوض الله بهذه العبارات مزمجراً ، آملاً ان تبلغ كلماته هذه آذان رجال البوليس

والآن . . . . كُسر الباب . أما كمال فماذا كان موقفه في هذه الحال ؟ لما تحقق هذا المسكين ان مقاومتهم البوليس لا تجدي نفعاً ، صمم على أن يبحث عن طريق آخر للنجاة. ومع ان فكره لم يسعفه بالسرعة المطلوبة ، الا انه فضل ان يقف في المؤخرة . وفي الفترة التي تهيأ فيها أفراد العصابة لمهاجمة رجال البوليس ، جال كمال في انحاء البيت باحثاً عن منفذ للنجاة

و بعد هنيهة صار دهليز البيت مسرحاً لمصارعات عنيفة بين أفراد العصابة ورجال البوليس ، الذين كانوا اكثر عدداً وعِدداً من الأوّلين . وفي اللحظة التي كان فيها حماس أفراد العصابة على أشده ، انسلّ كمال الى ممر ضيق ، ومنه وصل الى غرفة في الجانب الآخر من الطابق ، فرأى فيها ثلاث نوافذ مغلقة ، ففتح الواحدة تلو الأخرى ، متطلعاً الى الأسفل عله يجد من احداها

مخرجاً للنجاة ، فرأى من خلال الظلام، في ثالثتها ، وعلى مقربة من النافذة، قناة صلبة ، فوجد فيها الباب الوحيد للنجاة . لذلك صمم على أن يلجه . ثم وقف على عتبة النافذة وأمسك باحدى دفتيها ، وقبض قبضة المستميت على تلك القناة ، ومنها بدأ ينزلق الى الأسفل . ولكن... أهي يا ترى متينة بالقدر الذي يمكّنه من الوصول الى الارض بسلام ؟؟ لقد كانت لسوء حظه اضعف مما ظن ، الاّ انه لم يستطع ان يتبين نقطة الضعف فيها ، لان الظلام كان كثيفاً . وفيما هو ممسكٌ بها في نزوله الى أسفل ، داخله شيء من الاغتباط ، لأنه اذ تطلع الى فوق ، تيقّن انه صار في مأمن من كل رقيب

و . . . فجأة سُمع صوت صرصرة وقرقعة دلّه على ان جزءًا من القناة بدأ يتحطم ، فازورَّ كالحَجَم من فرط الخوف والولع ، واحتبست أنفاسه ، وارتعدت فرائسه، لان هذا الجزء من القناة لم يكن مثبتاً في الجدار، فهوى كمال على ظهره ، من ذلك العلو الشاهق ، منحدراً الى هوة سحيقة ، فاصطدم في سقوطه بأجسام صلبة ، محدثاً معها قعقعة عنيفة ، فتطاير من عينيه شرر أزرق ..... ثم غاب عن صوابه ..... ولم يدرِ ما حدث . . . !!!

الفصل الثاني عشر

مضى وقت طويل قبل أن يتمالك كمال أعصابه، و يسترد صوابه ، فيدري حقيقة ما أصابه

لما تحطمت تلك القناة ، التي كان كمال قابضاً عليها قبضة المستميت ، وسقط من علوه الشاهق، الى ذلك الحضيض السحيق، اصطدم جسمه بسقف مظلة، كان مغطّى بألواح من صفيح، محمولة على هيكل خشبي. فسقط به السقف، وهوى هو الى الأرض . انها لعناية خاصة تلك التي هيأت له هذا السقف الضئيل الذي خفف عنه وقع تلك الصدمة الهائلة ، اذ لولاه لكان في ذلك الحادث القضاء المبرم على حياته

وفيما كان كمال مستلقياً على ظهره ، بعد تلك السقطة المريعة ، بين حيّ وميت، انفتح باب خلفي كان يطل على هذا الموضع الذي سقط فيه، ومنه اندفع رجل وغلام كانا قد سمعا صوت تلك السقطة ، فوجدا كمالاً على هذه الحال ، وفي الوقت نفسه سمعا صوت ضوضاء وجلبة في الطابق العلوي ، نتيجة تصارع رجال البوليس مع أفراد العصابة ، واذ فهما تواً حقيقة الأمر الواقع ، تحركت فيهما النخوة لاسعاف ذلك الشاب واقامته من سقطته ، وحمايته من يد البوليس، سيما وانهما لم يكونا حسني الظن برجال البوليس عامة ، وكذلك كانت عقيدة سائر الجيران. فحملا كمالاً فاقد النطق والشعور، الى البيت الذي يقطنانه . ومن حسن حظ كمال ، ان النضال اشتد وطال ، بين أفراد البوليس ورجال العصابة ، فتمكن الرجل والغلام من نقل كمال قبل ان تلمحهما عيون

الرقباء . ومع ان رجال البوليس، كانوا يظنون ان نصف عددهم يكفي لمناضلة أفراد العصابة، والقاء القبض عليهم، وان النصف الآخر يجول في الأزقة والطرقات، في طلب أناس قد يكونون شركاء لرجال العصابة، إلا أنهم بسبب الوقت الطويل، الذي قضوه في الصراع العنيف مع أفراد العصابة، قرروا ان يذهبوا جميعاً بفرائسهم الى قسم البوليس. لذلك أفلت كمال من أيديهم الى النهاية

* * *

نحن الآن في مشهد يختلف كل الاختلاف عن المشاهد التي مرت بنا . فالمكان هادئ، يخيم عليه ملك السلام والاطمئنان، وأشعة الشمس المائلة الى الغروب ينعكس بعضها على الغيوم فتكسبها صفرة بديعة تنسي اليهودي جمال الذهب، وينفذ البعض الآخر من خلال نافذة مفتوحة الى غرفة في الدرجة الأولى من المستشفى الأهلي بالقاهرة فيوشّي جدرانها البيضاء الناصعة بريشة من محلول التبر. كان في تلك الغرفة سرير واحد، يضطجع عليه كمال، متفرساً في جمال الغروب . والظاهر ان الهدوء الذي كان شاملاً انحاء تلك الغرفة، قد اخترق الحجب، ووصل الى اعماق نفس كمال، فانبعث منها احساس فياض بالبشر والانشراح، فطبع على وجهه مسحة من الثقة والاطمئنان، والارتياح

سكون — ولكن ما أشبهه بذلك السكون الذي يسبق العاصفة الهوجاء !!

فجأة سمع كمال قرعاً على الباب، ثم رأى قريبه الدكتور شاكر داخلاً الى غرفته، وابتسامة السرور لا تفترّ عن ثغره الوضّاح

فحيّا كمالاً، باشاً طروباً : « كيف صحتك يا صاح ؟ لعلك قضيت يومك

هذا سعيداً هنيئاً. يسرُّني أن أراك باسم الثغر، وسيم المحيا في هذا المساء. يلوح لي ان صحتك في تقدم مضطرد. ولا شك انك ستخرج من هذا المكان عما قريب، سليماً معافىً»

— «أشكرك، فأنا أشعر اليوم حقاً بشيء من التحسن غير يسير، وفي الواقع لم يبرح عني هذا الشعور منذ أيام كثيرة» — فاه كمال بهذه العبارة بنغمة تنم عن شعور طيب نحو قريبه شاكر، على خلاف سابق عهده معه

— «كم أنا آسف لأنني لم أتمكن من زيارتك بالأمس، فقد دعيت فجأة لعيادة مريض. ولعلّ الممرضة أخبرتك بسؤالي عنك»

— «نعم أشكرك. فقد عرفتني الممرضة بسؤالك عني، وأنا أرى أنك كلفت نفسك كثيراً من العناء والمشقة في سبيل سؤالك عني»

وبعد فترة ساد فيها السكون، تابَعَ كمال حديثه قائلاً: «أنا أصارحك يا عزيزي انني كنت مترقباً مجيئك اليَّ، في الوقت الذي عودتني فيه على زيارتك، لأن سامي أفندي مقار كان هنا بالأمس، وكان جالساً على هذا الكرسي «كشوال من الدقيق — لم يفه ببنت شفة، والظاهر انه جاء ليخبرني عن ربحه شيئاً من النقود على المائدة الخضراء»

فقال شاكر ضاحكاً، متقدماً بكرسيه الى سرير كمال: «أنا أعرف ذلك الرجل، فهو ثقيل الظل ... وهل عادك الطبيب اليوم؟»

— «كان هنا منذ ساعة»

— «وما هو تقريره؟»

— «قرر الطبيب ان صحتي متقدمة تقدماً محسوساً، وسمح لي بالمشي قليلاً في هذه الغرفة بعد بضعة أيام»

قال شاكر بلهجة حماسية «حسن جداً، فهذا ما لاحظته أنا أيضاً عليك»

— «أرجوك أن تناولني هذه المرآة الصغيرة»

فناوله شاكر المرآة، وهو يقول مازحاً: «أتريد أن ترى وجهك في المرآة لتطمئن على حالة الجرح الذي في جبينك؟ لا تخف فان آثاره عما قريب تزول»

أجابه كمال وهو ناظر الى المرآة «بالأمس القريب كان الجرح بالغاً، ولكنه الآن في حالة حسنة. والظاهر انه سيترك أثراً لا يمحى. أليس كذلك؟»

أجابه الدكتور شاكر: «ربما يترك بعض الأثر. ولكن بعد ستة شهور تقريباً، سيزول جله ان لم يكن كله. وهل تنتظر ان حادثة خطيرة كهذه تمرّ بك من غير ان تترك أيّ أثر؟ انك حسن الحظ لدرجة فائقة»

فقال كمال متمتماً: «نعم. الحق معك، الحق معك»

صمت كلاهما بضع دقائق. ثم قام شاكر وأضاءَ مصباح الغرفة، وعاد فجلس على مقعده متابعاً صمته — ولكن بكيفية دلت على ان عنده شيئاً يريد ان يقوله ولكنه متردد في الافصاح عنه. فقطع كمال فرصة الصمت هذه وقال:

«أتعلم يا دكتور فيمَ أنا مفكر الآن؟». قال هذا ثم أمسك بقدح فيه

عصير الليمون، وتناول منه جرعة ليطفئ بها غليله، وليكتسب بضع ثوانٍ يتساعد بها على التفكير فيما يقول:

وكأن شاكراً أراد أن يساعده على الكلام، فقال له بكل اصغاء وانتباه «... نعم»

أما كمال فلم يزل متردداً، لكنه بعد ان تقلب قليلاً على سريره، طفق يقول: «انني مفكر طوال الوقت في هذا الكتاب» — ثم أخرج من تحت وسادته انجيلاً، مجلداً تجليداً أنيقاً، ورفعه بيده، ثم أعاده الى مكانه، وقال: «ان كل الفصول التي قرأتها فيه، تعاودني في فكري بين حين وحين. وفوق ذلك، فانني ظللتُ مدة طويلة أتفكر في الكلمات التي كنت تلقيها على مسمعي بين الفينة والفينة. ومع انها كانت في وقتها جوفاء في نظري، لا تحمل معها أي معنى، الا أنها أصبحت الآن واضحة امامي وضوح الشمس رأد الضحى»

ثم ظهرت على كمال علائم التردد كأنه شعر بشيء من الخجل والحياء من متابعة الكلام، فأخذ شاكر يشجعه في الافضاء اليه بما عنده، فسأله: «وماذا تعني يا عزيزي بقولك هذا؟ أوضح لي قصدك»

اجابه كمال: «لا أدري ما اذا كان في امكاني ان اوالي معك الحديث. إذ ليس من السهل علي التحدث بهذه الامور الشائكة العويصة الفهم. فلست انا من الثقافة بمكان نظيرك، حتى يسهل عليّ تناول هذه الموضوعات. وكل ما أريد أن أقوله لك الآن، هو أنني صرت مقتنعاً بأنك كنت محقاً في كل كلامك معي. نعم أنت محقّ!» ثم صمت هنيهةً، وقال:

« وها أنا الآن طريح الفراش منذ مدة ليست بقصيرة ، عانيت فيها آلاماً كثيرة ، لكنها بحمد الله محتملة . وكنت في خلال هذه المدة ، أتفكر كثيراً ، وأعيد النظر مراراً وتكراراً في منحى حياتي السابقة ، وها قد حصلت الآن على اختبار جديد . »

فقاطعه الدكتور شاكر مشجعاً : « وهذا ما نحتاج اليه كلنا . ان نتفكر ملياً في حياتنا . ويلوح لي أن غالبية الناس لا يوجدون لأنفسهم متسعاً كافياً من الوقت للتفكير في اتجاهات حياتهم ومناحيها . »

فاستطرد كمال في القول : « أي نعم ، وعند ما عادت اليَّ الصحة ، صرتُ أرى كل شيء في نور جديد. وقد أصبح في امكاني أن أواجه حقيقة أمري . بشجاعة لا عهد لي بها من قبل . وها قد وصلت الآن الى بعض النتائج التي سأكون حريصاً عليها حرص الشحيح على الاصفر الصحيح ، لاني ظفرت بها بعد أن عانيت في سبيلها آلاماً كثيرة ، ودفعت فيها ثمناً كبيراً . »

ثم عاوده الاطمئنان ، بعد أن تحقق أنه أجاد في استهلال الكلام ، فقال : « أنا واثق تمام الثقة ، من أنني وصلت الى هذه الحال بمعجزة ، اذ اهتديت الى طريق عجيب للنجاة من ذلك البيت الذي احتله البوليس في تلك الليلة المشئومة . ثم نجوت سالماً الى حد ما ، وحفظت العناية حياتي من الخطر ، على الرغم من سقطتي المميتة — كل هذا والبوليس لم يستطع أن يهتدي اليّ . والظاهر أن عيون الرقباء كفت عن البحث عني . وماذا أقول عن العناية الابوية الخاصة ، التي أرشدت جمعية الاسعاف ان تأتي بي

الى هذا المستشفى الخاص بدلاً من الذهاب بي الى مستشفى حكومي حيث كنت أظل طوال الوقت مهدداً بالقبض علي ! ! حقاً أن الله أظهر نحوي عناية ممتازة ، وحباً جمًّا ، ورعاية أبوية تفوق حد الوصف . ألا توافقني على هذا ؟ »

اجابه الدكتور شاكر بلهجة التوكيد : « ان هذه الامور التي تحدثني عنها الآن ، كانت — ولم تزل — موضوع تفكيري الخاص . حقاً انك بمعجزة نجوت من يد البوليس ، وبمعجزة قمت من سقطتك ، وبمعجزة أُحضرتَ الى هذا المكان . وهنالك مسألة أخرى امتنعتُ حتى الآن عن أن أعلمك بها ، ولكن الوقت قد حان لاحدثك عنها — وهي الكيفية التي أُحضرت بها الى هذا المستشفى . انك بعد أن وقعت ، حملك رجال الاسعاف تواً الى مركز الجمعية . ومن دلائل عناية الله الممتازة بك ، أن الدكتور رزق جيد كان وقتئذ هناك . وحالما تعرف على حقيقة شخصك ، اعلمني بالامر تلفونياً ، وأنا بالفندق الذي انزل فيه عادة ، فهرولت مسرعاً ، الى مركز جمعية الاسعاف ، وتكفلت بامرك . وهكذا أتينا بك الى هذا المكان . فيا لها من عناية عجيبة ، ممتازة ! ! »

اجابه كمال : « هذا دين جديد منك عليّ ، وسأحفظه لك ما حييت . والحقيقة يا شاكر ، أنني لست أدري الى أي مصير كنت امضي ، لولاك ! وها أنا أقر لك الآن ، بأنك أنت الصديق الحقيقي الوحيد الذي بقي لي في هذه الحياة . فزوجتي هجرتني ، وتجارتي آلت الى الخسران ، وكل معارفي هجروني ، بعد أن آذوني لانهم كانوا من طغمة شريرة . وأنا أشكر الله

الذي قيّض لي رجال البوليس فخلصوني منهم نهائياً، اذ قبضوا عليهم في تلك الليلة . لقد كانوا مصدر مصائبي وعلة مصاعبي. ومن فرط سذاجتي ، انني دخلت في زمرتهم ، واستسلمت لذلك الفتى المخاتل المسمى عوض الله ، الذي أوقعني في شراكه ، وجرني الى معاشرة تلك العصابة المجرمة . ولست أدري الآن ما الذي حملني على الانقياد له الى هذا الحد . » وهنا شعر كمال أنه أجهد نفسه في الكلام ، فتوقف عنه ليسترد بعض قوته

فقال له الدكتور شاكر : « لا تستسلم للانفعال ، يا عزيزي كمال . فانا أوافقك على كل كلمة صدرت عنك . والآن ، لنترك امر تلك العصابة جانباً ،ولنعتبر أفرادها كانهم صاروا نسياً منسياً .فنحسب أسماءهم في خبر كان.»

ثم أستأنف كمال كلامه ، بعد أن عاوده الهدوء والاطمئنان : «وهنالك أمور أخرى أريد أن أحدثك عنها . »

في هذه اللحظة ، سُمع قرع خفيف على الباب ، دخلت بعده احدى الممرضات ، واذ رأت الدكتور شاكراً موجوداً ، حيّته بابتسامٍ ثم خرجت.

فواصل كمال حديثه قائلا : « ثق يا شاكر انني قصدت أن أضع حداً فاصلاً بين ما تقدم من حياتي وما تأخر ، فأبدأ منذ الآن حياة جديدة . »

— « انك بحكمة فعلت »

— « قبلا كنت انظر الى الحياة نظرة خاطئة ، فكان جل غرضي في فيها ، أن أجمع المال وأن أنعم بالحظ . والآن قد وضح لي كل شيء في نور النهار ، بعد أن ذهب ذهبي ، وهجرني الحظ . »

فقال شاكر مبتسماً : « انها لعناية فائقة من الله ، انك خسرت مالك

لان الله دبر لك شيئاً أفضل . فخسارتك من ناحية يقابلها ربح من ناحية أخرى . »

اجابه كمال : « الى وقت يسير مضى ، كنتُ أحسب أن المال هو الكل في الكل في الحياة ، ولا يعلو عليه شيء . وفيما كنت طريح الفراش طوال هذه المدة ، ذكرت حلماً كنت قد رأيته وأنا مسافر الى القاهرة لاول مرة ، في طلب وظيفة . فاذ كنت نائماً في احدى عربات ذلك القطار ، حلمت انني فجأة أصبحت غنياً ، وصرت مشرفاً على عمل عظيم ، ثم رأيتني جالساً في مكتب فخم أدير كل أشغالي . وبعد انتهائي من عملي ، ركبتُ سيارتي الفخمة ، قاصداً قصري المنيف الذي بنيته في احدى الضواحي ، وفرشته بافخر الطنافس . وكلما ذكرت ذلك الحلم ، والمقامَ العظيمَ ، الذي رُفعتُ اليه ، صوَّر لي الوهم والخيال اني سأصادف نجاحاً عظيماً في أقرب الأوقات — ولكنه نجاح مادي ، مني على المطامع الاشعبية . أما الآن فقد تبين لي ، أن حياتي زهيدة حقيرة لا نفع فيها للآخرين ، ولا خير يرجى منها لنفسي »

« تسألني يا عزيزي عن السبب في هذا التغيير الجوهري ، الذي حدث لي ؟ أنا أقر لك بأنه ليس من السهل عليّ الافصاح تماماً عما يختلج في نفسي من جهة هذا السر العظيم ، وكل ما أستطيع أن أقول ، هو أن دراستي ذلك الكتاب الصغير ، غيرت منحى حياتي واتجاهاتها تغييراً كلياً ، وما زلت الى اليوم مكباً على دراسته . ولطالما قرأت بعض عبارته المرة تلو المرة . وفي كل مرة اكتشف في كل عبارة نوراً جديداً . »

فقاطعه الدكتور شاكر قائلاً : « هذا ما أشعر به أنا أيضاً باستمرار . فقد قرأت الآن هذا الكتاب ، مرات عدة . وفي كل مرة أرى نوراً جديداً يشع من كلماته . والسبب في ذلك يا كمال ، أن هذا الكتاب ليس من انشاء بشر ، وانما هو وحي من الله . وهل لي ان أسألك يا كمال ، عن أي جزء في هذا الكتاب اثار فيك هذا الاهتمام الذي اهنئك عليه ؟ »

أجابه كمال : « في هذا الكتاب مواضع كثيرة أثارت اهتمامي . انني قبل كل شيء ، قرأت البشائر الأربع ، فوجدتها مليئة بأمور عجيبة — سيما هذه الكلمات التي فاه بها المسيح في موعظته على الجبل — ثم فتح الانجيل وقرأها منه : « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض ، حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون . » ولشدة دهشتي ، الفيت هذه الكلمات منطبقة عليَّ تمام الانطباق . لدرجة خلت فيها ، أن هذه الكلمات تصفني أنا دون سواي . وهنالك كلمات أخرى مثل قوله : « احملوا نيري عليكم وتعلموا مني ، لاني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم . »

— « لعلك تذكر أن هذه الكلمات الاخيرة وردت في الاصحاح الحادي عشر من انجيل متى . »

— « نعم . نعم . هاهي : « في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال : « أحمدك ايها الآب رب السماء والارض ، لانك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء ، وأعلنتها للاطفال . نعم أيها الآب ، لان هكذا صارت المسرة

امامك . . . . . تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال ، وانا أريحكم احملوا نيري عليكم ، وتعلموا مني ، لاني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم ، لان نيري هيّن وحملي خفيف . » طبعاً توجد أمور في هذا الكتاب استطعت أن افهمها جيداً ، وكذلك ايضاً توجد أمور لم أقوَ على فهمها . فقد قرأت تاريخ محاكمة المسيح عدة مرات ، فتمثلتْ أمامي كأنها مهزلة قضائية ، انقلبت فيها أصول العدالة رأساً على عقب . ولكن الشيء الذي تأثرت منه ، بنوع خاص ، في هذه المحاكمة : هو وقوف السيد المسيح في كل ادوارها ، رابط الجأش ، ساكن الجنان ، يفيض قلبه بالعطف والحب والحنان . اتذكر كلمته الاولى التي فاه بها حالما سُمِّر جسده على الصليب؟»

اجابه شاكر « هي قوله : « يا ابتاه أغفر لهم ، لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون . » هذا هو العجب العجاب » .

— « ثق يا دكتور أن شخصية المسيح ملكت عليّ مشاعري، وسبت قلبي واستأسرت بلبي . لقد عشتُ أنا عيشة تافهة هزيلة ، مقابل عيشتك الرابحة الجليلة ، لان حياتك مؤسسة على مبادئ المسيح وتعليمه . وحياتي مؤسسة على المطامع الاشعبية . هذا هو السر في الفارق العظيم ، الذي يميز حياتك عن حياتي . والامر الذي يقض مضجعي : أنني طوال هذه المدة الماضية ، عاملتك بالسوء لقاء معاملتك لي بالخير . وها قد ادركت في النهاية انك أنت الشخص الوحيد الذي بقي أميناً على عهد الصداقة معي ، فانقذت حياتي من مخاطر وبيلة ، كانت محدقة بي . فهل لك أن تصفح عن سيئاتي وتغض الطرف عن تقصيراتي ؟ »

—عفواً يا عزيزي، فلننس كلانا ما مضى.لان ما مضى ولىَّ وانقضى ، ولنواجه المستقبل بقلوب مخلصة ، وعزائم قوية ، ونفوس مفعمة بالرجاء . »

قال كمال : « وهذا ما وطنت النفس عليه ، ويخيل اليَّ ، ان أفضل صنيع أكافئك به لقاء معروفك معي ، أن أسلم قلبي للمسيح . ويسرك أن تعلم أنني خطوت هذه الخطوة فعلاً . »

— « أنا أفهم ما تقول ولكنني ارجو ، بل اثق ، ألا تكون قد خطوت هذه الخطوة لاجلي . بل لاجلك . . ولاجله . . »

— « اي نعم »

— « يا لها من خطوة عظيمة ، اهنئك عليها من كل قلبي . أتذكر يا كمال انني كنت محاولا أن أفضي اليك بشيء من هذا ، ليلة وصولي الى الاسكندرية ، حين كنا نتنزه سوية على الشاطىء بعد العشاء ، في تلك الليلة القمرية ؟ »

— « نعم أتذكر جيداً . »

— « في ذلك الوقت ، كنت أحاول أن اسر اليك ، انه على الرغم من كل نياتنا الحسنة ، ومقاصدنا السليمة ، فاننا في مسيس الحاجة الى صخرة أعلى منا ، ترفعنا من وهدتنا ، وتقيمنا من سقطتنا »

« نعم أذكر ذلك ، وقد وضح لي الآن ، أن المسيح وحده هو هذا الصخر الأوحد . ومع أنني لا أفهم تماماً السر في هذا ، الا أنني أسير كل يوم وفق النور الذي عندي فيأتيني الغد بنور جديد . وهكذا سأزداد اختباراً وتعلماً ، ما دمت على قيد الحياة ، الى ان أبلغ الى قياس قامة ملء المسيح . »

الآن دخلت الممرضة ، وكان الوقت قد أمسى ، فقطعا خيط الحديث ، على أمل أن يصلاه في فرصة أخرى . فقال شاكر مودعاً : « لقد مر الوقت سراعاً ، وها نحن الآن في الساعة الثامنة مساء . استودعك السلامة . . . . الى الغد . »

— « الى اللقاء يا عزيزي »

تذييل

ها قد بلغنا الختام ، وقد مضى الآن ما يقرب من ستة أعوام ، مذ بدأنا المقال في هذا المقام

نحن الآن في منتصف ليلة ليلاء ، حجب الغيمُ نجومَها ، والسكون مخيم على المدينة ، فلا يُسمع فيها سوى قرقعة عجلات السيارات الراجعة الى حظائرها. وفي احدى الغرف الفسيحة في طابق فخم في حي جاردن ستي ، كان شخصان نائمين نوماً عميقاً ، سابحين في بحر من الاحلام اللذيذة

وفجأة استيقظ أحدهما من النوم وظل بضع دقائق مفكراً — بين نائم ومستيقظ — في السبب الذي قطع عليه نومه ، على غير المعتاد في هذه الساعة الهادئة . ولشدة دهشته ، لم يسمع صوتاً ولا حركة ، دليلاً على ان المدينة امست غارقة في سبات عميق بعد ان غطاها الليل بمعطفه المبطن بالظلام فصمم على ان يتحايل على طيف الكرى عله يعود فينعقد على جفنيه

«ولكن.....ما هذا الصوت ؟ وما هو مصدره ؟ أهو شيء خارج البيت أم داخله ؟ ؟ لقد تكرر الآن . يا ترى هل استيقظ احد الأولاد وجال يتمشى في البيت أم ماذا ؟ اذاً لا بد من ترك غرفة النوم لأكتشف بنفسي حقيقة الأمر» . واذ همّ رب الدار بالخروج ، نادته زوجته ثريا :

— «الى أين ؟»

فأسرّ اليها قائلاً «أتسمعين الآن هذه الأصوات الغريبة ؟»

— «كلا ! »

— « لعله ابني حنا . وعلى كلٍّ ، فلا بد لي من أن أكتشف الأمر بنفسي»

فخرج من غرفة النوم الى دهليز البيت ، من غير أن يضيء المصباح ، ووقف هنيهة يتسمع للصوت ، فأدرك انه ليس منبعثاً من غرفة الأولاد ، بل من غرفة الاستقبال ، التي كان بابها وقتئذ مغلقاً . واذ دنا منه ، تحقق ان في الغرفة شخصاً ، ففتح الباب بكل خفة وحذر ، فوجد ضوءاً ضئيلاً على مكتبه ، ورأى مكتبه مفتوحاً ، ولمح شخصاً جاثياً مقابله ، يقلب أوراقه ، ومحتوياته . وسرعان ما حاول ربّ الدار أن يمد يده الى زر الكهرباء ليضيء النور ، حتى قفز اللص فجأة ، وتطلع حوله ، فرأى رب الدار واقفاً في مدخل الغرفة ، فألقى بالأوراق التي كان ممسكاً بها ، واندفع مهرولاً الى باب آخر كان مفتوحاً في الغرفة ، ومنه وصل الى الممر الخارجيّ ، محاولاً الهروب

لكن رب الدار كان أكثر منه حذراً وحيطة ، وأخفّ منه حركة ، فأضاء النور بسرعة فائقة ، واندفع وراء اللص ، منقضاً عليه انقضاض الصاعقة ، فامكنه اللحاق به وهو يجتاز ذلك الممر الضيق ، فتلقّفه وطرحه أرضاً

سمعت ربة الدار هذه الحركة ، فارتدت معطفاً ، وخرجت الى غرفة الاستقبال ، فصاح زوجها : «يا ثريا نادي البواب ، ليستنجد بالبوليس ، لأنني الآن قابض على لص»

فاندفعت هي الى الخارج ملبية الامر ، بأسرع من لمح البصر

فقال رب الدار مخاطباً اللص «تقدم الى النور وأرني وجهك . يا أيها المجرم الاثيم» ثم دفعه امامه ، ممسكاً بقفاه ، معيداً اياه الى غرفة الاستقبال . وسرعان

ما واجه أحدهما الآخر امام نور المصباح، حتى علتهما موجة من الدهشة والاستغراب

صاح رب الدار: «يا للهول — أأنت نقولا؟!»

وقال اللص فزعاً: «... وأنت كمال!؟»

— «نعم أنا..س.....»

— «أراك قد تدرجت في معارج الرقي والغنى يا كمال»

— «وهل آل بك الأمر أخيراً يا نقولا الى السرقة؟»

فصمت نقولا وشعر لاول مرة في حياته بخجل عظيم، محاولاً ان ينتحي ناحية أخرى من الغرفة

فاستطرد كمال في القول بنغمة تهكمية «أهذه وظيفتك الجديدة يا نقولا؟ وهل صممت على أن تجعل من أصدقائك أول ضحية لعملك الجديد؟ يا لها من معاملة طيبة تجزي بها اخوانك!!»

في هذه الآونة، سُمعت أصوات عند الباب الخارجي، فظهرت على نقولا علائم الخوف والفزع والاضطراب. وبعد برهة، دخل رجل البوليس، ووقف في الممر الخارجي، فصاح قائلاً: «ها أنا قد جئت. فماذا حدث؟ . لص؟!» ثم تقدم الى الامام محاولاً ان يلقي القبض عليه

أما ذهن كمال فقد أضحى الآن مسرحاً لعوامل كثيرة متضاربة تتجاذبه وتتقاذفه، حيناً من الزمن. لكنه استطاع بعد جهد جهيد ان يستجمع قواه، حتى وصل الى حكم فاصل في الامر. فقال لرجل البوليس، محاولاً ان يصده

عن نقولا «مهلاً يا سيد». فتراجع رجل البوليس الى الوراء. أما نقولا فكان يتفرّس بامعان في صديقه القديم، مفكراً فيما عساه أن يفعل به. وقد ملكته الدهشة والحيرة، حين سمع كمال مخاطباً رجل البوليس بالقول:

« اياك أن تمسه. تفضل اخرج خارجاً، كأن شيئاً لم يحصل»

فاستشاط رجل البوليس غيظاً، وصاح به «نعم!! وماذا تقصد بقولك هذا؟»

أجابه كمال، وقد عاوده الآن السكون والاطمئنان: «لقد فهمتَ قصدي. وما عليك الا أن تمتثل لأمري. فاخرج حالاً، ولا تتلفظ ببنت شفة. هذا بيتي وأنا حر التصرف فيه»

فما كان من رجل البوليس الا أن انصاع لأمره وقال: «سمعاً وطاعة. فالامر أمرك». وانصرف

ثم قال كمال لزوجته التي كانت واقفة تراقب المشهد صامتة: «هل لك أن تتركينا وحدنا لحظة من الزمن؟»

واذ تركتهما، وانفرد أحدهما بالآخر، سادهما في البداءة صمت رهيب

ثم قال نقولا: «اكاد لا أصدق انك لا تريد أن تسلمني ليد البوليس؟»

أما كمال، فقد سرح الطرف في نقولا لحظة، حزيناً على التغيير الكلي، الذي طرأ عليه. لان ثيابه أصبحت رثة باليـة، ووجهه صار مكمداً كئيباً، وعلائم العربدة منطبعة عليه. ففارق السواد لحظة الى لحظة، وتنقلت الحمرة من خديه الى عينيه. فسال الدمع على عيني كمال ثم قال «نعم ليس في نيتي أن أسلمك الى رجل البوليس. تفضل اجلس هنـا قليلاً». وبعد ان جلس

نقولا بحالة عصبية، على طرف احد المقاعد، قال له كمال : « لا أبغي تسليمك ليد البوليس لأسباب كثيرة. منها انني أريد أن أفضي اليك ببعض الاختبارات العظيمة التي مرّت بي في السنين الاخيرة. فهل تستمع لي ؟»

أما نقولا فقد استجمع أعصابه، واستطاع أن يقول بلهفة عظمى «... تفضل ... تفضل » ، ودموع الفرح تنهمر على خديه

فطفق كمال يحدثه بأعذب الكلام ، وهو يستمع له بكل لذة واهتمام ، حتى بان الصباح ولاح ، واشرق بنوره الوضاح ، فاستحالت دموع نقولا الى اعذب ابتسام ، اذ ولدت التوبة في قلبه خير بهجة وانشراح ، وكان ذلك مسك الختام .

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59574500
ME06374
Batal al-matami.